

إذا سألت فاسأل الله

محمد بن عبد الله المقدي



المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد:

فهذه تقارير لقضايا عقدية هامة آثرت بحثها بأسلوب حوارى تقريباً للمعاني؛ حتى تعيها القلوب وتتحرك بها الأبدان. ولقد اخترت فيها اللغة المباشرة السهلة مسلماً؛ إذ المراد التوضيح والتفهم للمسائل المقررة.

وسرت في تقريرها مستدلاً بكلام الله وصحيح سنة النبي ﷺ، ومستفيداً من كلام العلماء.

وأودُّ هنا - من باب إسناد الفضل لأهله - أن أذكر جملة من الكتابات التي استفدت منها بشكل أساسي في صياغة هذه المادة الحوارية.

وهي الآتي:

- ١- تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي. د. محمد أحمد نوح.
 - ٢- الدعاء ومنزلته في العقيدة الإسلامية. خضر بن جيلان العروسي.
 - ٣ - ذكر الله بين الاتباع والابتداع. عبد الرحمن خليفة.
 - ٥- حوار في ضوء القرآن.
- فلهم جميعاً الشكر.
- وما فعلته محاولة لا أدعي كمالها، ولكنّها خطوة لتدعيم الحقيقة في نفوس المؤمنين، بذلت فيها جهدي مع قلة بضاعتي وقصر باعي، نصحاً لنفسي ولإخواني المؤمنين.

والحمد لله رب العالمين

محمد بن عبد الله المقدي

Almagdy3@hotmail.com

الموج المتلاطم

وقف عمادٌ يتأمل المناظر الطبيعية الخلابة التي تظهر له من فوق
ظهر السفينة الضخمة التي يستقلها في رحلة ترفيهية مع صديقه المقرب
كريم بعد أن أكمل الفصل الجامعي، وبينما هو مُستندٌ إلى حاجز السفينة
وقد بهرته روعة تلك المشاهد الخلابة التي تنطق بعظمة الخالق المبدع،
إذ أغراه جمال المنظر بأن يميل بجسده أكثر إلى الأمام؛ ليتمكن من رؤية
السفينة وهي تمخر عباب البحر.

وفجأة إذا بموجةٍ عنيفةٍ اهتزت معها السفينة اهتزازًا شديدًا،
فاختل توازن عماد، وحدثت المصيبة، وسقط عماد في قلب المحيط،
وتعاضمت المصيبة؛ فعمادٌ لا يُحسن السباحة.

صرخ عمادٌ طالبًا النجدة حتى بُحَّ صوته، وظلَّ يُصارع الموج دون
جدوى، وبدأ ينادي بصوت يشبه هزيم الرعد: يا جيلاني! يا شاذلي!
يا دسوقي! يا محضار! علّهم يستطيعون إنقاذه.
وبينما هو يصارع تلك الأمواج العاتية وينادي بأعلى صوته؛ إذ رآه

رجلٌ في الأربعين من عُمره كان مسافرًا معه على ظهر تلك السفينة، وعلى الفور أطلق جهاز الإنذار ثم رمى بنفسه في الماء لإنقاذ عماد، وبسرعة دبَّ النشاط والحركة في جميع أركان السفينة، وهروا المسؤولون وتجمَّع المسافرون على ظهر السفينة يرقبون المشهد ويبادرون بالعون والمساعدة، فألقوا بقوارب النجاة إلى المياه، وتعاونت فرقة الإنقاذ مع الرجل الشَّهم لأجل الصعود بعمادٍ إلى ظهر السفينة، وتمت عملية الإنقاذ بعون الله تعالى.

ونجَّ عمادٌ من موتٍ مُحققٍ، وتلقَّفه صديقه كريمٌ معتنقًا إياه. انطلق عمادٌ يبحث عن ذلك الرجل الشجاع الذي جعله الله تعالى سببًا في إنقاذ حياته، فوجده واقفًا في ركنٍ من أركان السفينة يُجفِّف ملابسه، فأسرع إليه عماد واعتنقه، وقال: لا أدري كيف يمكنني أن أشكرك على جميلك معي، لقد أنقذت حياتي. ابتسم الرجل ابتسامة هادئة، ونظر في الأفق متأملًا، ثم التفت إلى عمادٍ وخاطبه قائلاً:

يا بُني! حمدًا لله على سلامتك، ولكن أرجو أن تساوي حياتك ثمن بقائها^(١).

(١) مقتبسة من كتاب: صناعة الهدف (ص: ٥-٦) بتصرفٍ يسير.

تَعَجَّبَ عمادٌ مِن هذه الكلمات، ونظر إلى الرجل مستوضحاً معنى كلامه.

استمرَّ الرجل في كلامه قائلاً: لقد سَمِعْتُكَ وأنت تُصارع الأمواج العاتية تنادي الجيلاني والشاذلي والدسوقي والمحضار كي يُنقذك، فعلمتُ أنّك بحاجةٍ إلى الإنقاذ.



وإذا سألك عبادي عني فإني قريب

استولت الدهشة على عقل عمادٍ حين سمع الرجل يذكر له من استغاث بهم لينقذوه، وملامح وجهه تُنبئ أنَّ عمادًا قد فعل شيئًا غير صحيح!!

إلا أنَّ تلك الدهشة دفعته إلى التعرف على مخاطبه ليسلك بذلك سبيلًا إلى معرفة ما يدور بخلد الرجل، فبادر قائلاً في لطفٍ: أحبُّ أن تعرفني بنفسك.

فأجاب الرجل: اسمي محب.

وعاد عماد إلى السؤال لاستظهار الحقيقة من هذا الرجل، ودار بينهما الحوار الآتي:

عماد: أي محب! كأنك أنكرت عليَّ استغاثتي بأولئك الأولياء، فما المشكلة في الاستغاثة بهم؟

أليسوا هم أولياء الله الذين يغثون من أصابه الكرب والضيق والغرق؟! وقد استجابوا لندائي وأرسلوك لإنقاذي!

تَبَسَّمْ عِمَادٌ عِنْدَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَبَدَأَ عَلَيْهِ التَّحَمُّسُ الشَّدِيدُ لِمَوَاصِلَةِ النَّقَاشِ مَعَ مَا أَصَابَهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ الصَّعْبِ مِنْ مَتَاعِبٍ.

محب: لماذا لا تُؤجل هذا الحديث إلى وقتٍ لاحقٍ كي تأخذ قسطاً من الرَّاحَةِ ثُمَّ تُواصل حديثنا إن شئت؟

وافق عِمَادٌ وَهُوَ يَتَحَسَّسُ أَعْضَاءَهُ الَّتِي أُصِيبَتْ بِمَوَاجِعِ وَأَلَامٍ رَهيبَةٍ.

في عصر ذلك اليوم التقى عِمَادٌ وَمَحَبُّ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ، وَبَدَأَ عِمَادٌ بِحَالَةٍ جَيِّدَةٍ، فَبَادَرَهُ مَحَبُّ بِقَوْلِهِ: لَعَلَّكَ أَخَذْتَ قِسْطاً مِنَ الرَّاحَةِ؟

هَزَّ عِمَادٌ رَأْسَهُ مُوَافِقاً مُرَدِّدًا: الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، ثُمَّ قَالَ عِمَادٌ لِمَحَبِّ: لَقَدْ تَذَكَّرْتُ حَدِيثًا يَتَّصِلُ بِمَا تَكَلَّمْنَا عَنْهُ سَابِقًا.

محب: وما هو؟

عماد: قوله ﷺ: «إِذَا تَحَيَّرْتُمْ فِي الْأُمُورِ فَاسْتَعِينُوا بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ»^(١) أَلَمْ تَسْمَعْ بِهِ؟

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (تلخيص كتاب الاستغاثة) (٢/٥٧٧):
 (هذا مكذوبٌ باتِّفاق أهل العلم لم يروه عن النبي صلى الله عليه وسلم أحدٌ من علماء الحديث). وانظر: الفتاوى (١١/٢٩٣)، منهاج السنة النبوية (١/٤٨٣)، إغاثة اللهفان (١/٢١٥).

وإذا سألك عبادي عني فإني قريب

محب: بلى! سمعتُ به.

عماد: إذا لم لا تُطبّق معناه؟ أتردُّ حديث رسول الله ﷺ؟!؟

بادره محبٌ بقوله: أتودّ النقاش ونحن واقفون هكذا؟! فلنذهب إلى فناء السفينة الخلفي. أجاهه عمادٌ هازاً رأسه بالموافقة. تحرّك الرجلان وأفكارٌ تدور في ذهن عماد: ما الفكر الذي يحمله هذا الرجل؟

لماذا لا يؤمن بقوة الأولياء والصالحين؟ ألا يدرك أنه أنقذني لأنه مرسلٌ من الجيلاني الذي أغاثني بندائي له؟!؟

استيقظ عمادٌ من أفكاره على صوت محبٍ وهو يقول له: تفضّل بالجلوس؛ فقد تعبت في هذا اليوم، فأهوى عمادٌ بجسده على الكرسي.

بادره محبٌ قائلاً: هل تشرب شيئاً؟

فغمغم عماد بقوله: أيُّ شيء ساخن. فأحضر محب كأسين من الشاي، ووضعهما على الطاولة، وقال: أخبرني عمّاً كنا نتحدث.

عماد: كنت أتساءل: هل ترُدُّ حديث: «إِذَا تَحَيَّرْتُمْ فِي الْأُمُور فَاسْتَعِينُوا بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ»^(١)؟

(١) تقدم تخريجه.

محب: لا يجوز لأحدٍ من المسلمين أن يردَّ حديث رسول الله ﷺ طالما أنَّ الحديث صحيح.

لكن هل هذا الحديث صحيح أم ضعيف؟

لقد حكم أهل العلم على هذا الحديث بأنه موضوعٌ، وكلمة (موضوع) تعني أنه مكذوب على النبي ﷺ.

عماد: لكنَّه موجود في كتاب (كشف الحفَاء) للعجلوني، وهو من علماء الحديث!

محب: قولك صحيح، لكن (كشف الحفَاء) صنَّفه العجلوني ليميز الحديث الصحيح من الضعيف، واسم الكتاب كاملاً: (كشف الحفَاء ومزيل الإلباس عما اشتَّهر من الأحاديث على ألسنة الناس)، فقد صنَّفه / لبيِّن صحيح الحديث من ضعيفه، وقد ذكره في كتابه لتبيين أنه موضوع.

عماد: إذاً الحديث موضوع! ولكنه استدرك قائلاً: ولكن الاستغاثة بالأولياء والصالحين لها الكثير من الأدلة، ألم يقل الله تعالى حاكياً عن موسى ×: ﴿فَأَسْتَغْنُثُهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]؟! فأنت ترى أنَّ في هذه الآية الكريمة دليلاً ظاهراً

وإذا سألك عبادي عني فإني قريب

على جواز الاستغاثة بالأموات والغائبين حينما تُصيب الإنسان الأضرار والشُرور.

محب: أفهم منك -يا أخي عماد- أنك لا تميّز بين الاستغاثة الجائزة والاستغاثة الممنوعة.

عماد: وهل ثمة فرق بينهما؟

محب: التفريق بينهما ظاهرٌ جلي، وقد ذكره كثير من العلماء، فالاستغاثة الجائزة: هي الاستغاثة بالحيِّ الحاضر فيما يقدر عليه من الأمور الحسيّة، كأن يستغيث الإنسان برجل مثله لمدافعة عدو، أو يستغيث إذا سَقَطَ في البحر، فهو استغاث بمن حوله لينقذوه.

أما الاستغاثة الممنوعة فهي الاستغاثة بالأموات والغائبين، أو الاستغاثة بالأحياء فيما لا يقدر عليه إلا الله، كمن يُصيبه المرض فيقول: يا سيّدي عبد القادر! اشفني، أو يذهب إلى أحد الصالحين ويقول له: ارزقني مالاً أو ولداً، وعلى هذا فالاستغاثة المذكورة في الآية استغاثة بحيٍّ حاضرٍ، وهي جائزة.

عماد متسائلاً: ولكن روح الولي الميت هي كالسيف المسلول من غمده، تُغيث الناس وتُعينهم إذا ادلّهمت المصائب!

بَدَا على وجه محب التَّمَعُر عند سماعه لهذه الكلمات، فما يقوله عماد مخالفٌ لنصوص صريحة في كتاب الله. هكذا رَدَّدَ في نفسه، ولكن لا بد له من تبيين الحق، وهنا بادر عمادًا بقوله:

إِنَّ تَحْوُلَ رُوحِ الوَليِّ إلى سَيفِ مَسلولٍ عِندَ المَوتِ مَجَرَّدُ تَقَوُّلٍ وَتَحَرُّصٍ لَيسَ لَه دَليـلٌ مَن كِتابِ اللهِ وَلا مَن سَنَةِ رِسولِهِ ﷺ.

فالأرواحُ وإن كانت مُتفاوتة في مستقرِّها فبعضها مَنعَمٌ وبعضها مُعَذَّبٌ، إلا أنَّها ليست محلاً للدعاء ولا للإجابة.

فقولك: إنَّ روح الوَليِّ تُغيثُ الناسَ وتعينهم، قد بيَّن لنا اللهُ تعالى بطلانه، فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا^ط فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فهذه الآية تدل على أنَّ الله يُمسك الأرواح، فكيف ستصرف بإغاثة ملهوفٍ أو تفريج كربة مكروب وهي بهذه الحالة؟!

وكيف يكون لها ذلك وقد حكى اللهُ تعالى عن نبيه عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام أنه يقول في الآخرة: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ^ط فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

وإذا سألك عبادي عني فإني قريب

فإذا كان رسولُ الله المسيحُ عيسى بنُ مريمَ نفسه لا علمَ له بما
أحدتت أمتُه من بعده، فكيف يُقبل أن تكون روح الولي كالسيف
المسلول من غمده؟!

وتأمل أخي الكريم هذه الآية! قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ
يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ
غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، أي: لا أحد أشدَّ ضلالاً ممن يدعو غير الله.

ثم إنك بدعائك غير الله تكون قد ارتكبت عِدَّة نواهٍ ذكرها الله في
كتابه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، ﴿وَلَا
تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ
اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

بدأ على محب الانفعال وكأنه سيل يتدفق بهذه الآيات الباهرات،
لقد كان يتحدث وهو متأثرٌ بكل كلمة يقولها!!

ثم تابع قائلاً:

أخي عماد! ألم تسمع قوله تعالى في حال الكفار الذين هم أصلاً
وأشدّ غفلة؟! لقد بين لنا أنهم يدعون الله عند الشدائد ويدعون غيره
عند الرخاء، أما في زمننا فقد سمعتك تدعو غير الله عند الشدة،
فكيف - بالله عليك - بحال الرخاء!؟

تأمل هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرَبَ بِهَمِّ بَرِيحٍ طَيْبَةٍ وَفَرِحُوا
بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ
بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ
فَلَمَّا جَنَّكُم مِّنَ الْبَرِّ اِعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
فَلَمَّا جَنَّهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾
[لقمان: ٣٢].

وإذا سألك عبادي عني فإني قريب

هذا ما ذكره الله عنهم من إخلاص الدعاء عند التّطام الأوج.

وقد ذكر الله عنهم إخلاصهم الدعاء عند الشدائد بصفة عامة، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

وقد حَكَمَ اللهُ تعالى عليهم بأنهم مشركون مع إخلاصهم الدعاء لله تعالى في الشدة؛ لأنهم أشركوا معه غيره في الرّخاء، فما هو حال من يدعو غير الله في الرّخاء والشدة؟

بدا الإنصات الكامل على عباد، فما هو يسمع كلامًا شافيًا من القرآن العظيم.

أنصت طويلاً وسكن سكناً تاماً وهو يتأمل هذه الآيات الكريبات.. كيف لم تستوقفه أثناء تلاوته للقرآن التي هو حريص عليها كَلِّ الحرص؟!!

عاد محب بمقعدِهِ إلى الوراة قليلاً، وقال ملاطفًا عمادًا ومحترمًا
سُكُونَهُ: دَعْنِي أَطْلُبْ لَكَ شَايَا تَجِدُّدَ بِهِ نَشَاطِكَ.

ذَهَبَ مَحَبٌّ وَعَيْنًا عِمَادٍ تَرْمُقُهُ، لَقَدْ كَانَ يَتَسَاءَلُ مَعِ نَفْسِهِ: إِنَّهُ يَذْكُرُ
آيَاتِ مَحْكَمَاتٍ، وَلَكِنْ... تَصَارَعَتْ فِي ذَهْنِهِ أَفْكَارٌ شَتَّى، وَأَحْسَسَ أَنَّ
الْأَرْضَ بَدَأَتْ تَدُورُ بِهِ، ثُمَّ أَفَاقَ وَمَحَبٌّ وَقَفَّ بِجَانِبِهِ وَعَلَى وَجْهِهِ
ابْتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ، وَفِي يَدَيْهِ كَأْسَانِ مِنَ الشَّيْءِ.

رَشَفَ عِمَادٌ مِنْ كُوبِهِ رَشْفَةً وَبَدَأَ كَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُفْضِيَ بِشَيْءٍ إِلَى
مَحَبٍّ.

عماد: عَمَّتِي تَزَوَّجَتْ مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ، وَلَمْ تَنْجِبْ أَطْفَالَ، وَقَدْ
زَارَتْ كُلَّ مَصْحَاحَةٍ سَمِعَتْ بِهَا مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ تُذَكِّرُ، بَيْنَمَا ذَهَبْتَ إِلَى قَبْرِ
الْجِيلَانِي فَرُزِقْتَ بَوْلِدٍ جَمِيلٍ، أَلَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى قُوَّةِ تَصَرُّفِ الْأَمْوَاتِ؟
محب: وَهَلْ قِصَّةُ عَمَّتِكَ دَلِيلٌ يُسْتَدَلُّ بِهِ؟!

قال الله تعالى: * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا
يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٢٠﴾ &

أخي عماد! لقد قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من

وإذا سألك عبادي عني فإني قريب

ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له^(١)، فهل تجد في هذا الحديث أن الميت يَرزُقُ أحدًا بالأولاد؟

وزد على هذا أن رسول الله ﷺ دُفن في المدينة، ولم يأتِ إلى قبره أحدٌ من صحابته رضوان الله عليهم، أو التابعين لهم بإحسانٍ طلبًا للأولاد والأرزاق! وهم أولى بكلِّ برٍّ وفضيلةٍ.

ودعني أسألك سؤالاً يسيراً:

هل يقدر الأموات على ما لم يقدر عليه الأحياء؟

والله تعالى يقول: **﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾** [فاطر: ٢٢]، فالأحياء والأموات لا يستوون.

وما أسوأ أن يُعلِّم الإنسانُ النَّاسَ الأعمالَ المخالفةَ للشريعة لا لشيءٍ إلا لأنه رآها حسنة!!

عماد: ولكنَّ الشيخَ عبد القادر الجيلاني في بعض شعره يقول:

مُرِيدِي إِذَا مَا كَانَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا أُغِيثَهُ إِذَا مَا صَارَ فِي أَيِّ بَلَدَةٍ

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

محب: ولكنَّ الله تعالى يقول غير ذلك، فقد قال تعالى: ﴿أَمَّنْ سِجِّيبٍ الْمُضْطَّرِّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوَاءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، فإذا ما ظهرت للمرء حاجةٌ فالله هو الذي يكشفها.

ولك أن تعلم أن أكثر ما يُذكر عن عبد القادر وأمثاله غير صحيح، والشعر المذكور أنفاً نَعُدُّه من هذا القسم؛ فعبد القادر / من المشايخ الكبار المعروفين بالاتباع وموافقة السنة.

وإذا كان قد كُذِبَ على رسول الله ﷺ فكيف لا يُكذَّبُ على عبد القادر الجيلاني؟! ولو سلّمنا بأنَّ عبد القادر أنشد هذا البيت فلن نُسَلِّمَ بصحة معناه؛ فكلُّ يؤخذ من قوله ويُترك إلا الحبيب محمد ﷺ.

عماد: ألا يستعين الناس بعضهم ببعض؟

محب: ولكن طلب المعونة من الأموات يختلف عن ذلك.

وأضرب لذلك مثلاً: تخيّل أنّك دخلت إلى المستشفى فوجدت مجموعة من النسوة اللاتي يعتقدن في الأولياء أنّهم يتصرفون في هذا الكون ويُعيثونَ البشر، فهذه امرأةٌ حاملٌ في شهرها التاسع، لا تستطيع أن تمشي من ثِقَلِ الحمل، وهي تنادي بأعلى صوتها: يا دسوقي! فرِّج عني.

وإذا سألك عبادي عني فإني قريب

وأخرى قد دأهمها مخاض الولادة، فهي تنادي: يا بدوي! نفس عني كربتي. مما تجد وتقاسي.

وثالثة تُراجع الطبيب مراتٍ وكراتٍ بُغيةَ الإنجابِ ثمَّ تُيمم وجهها لقبر السّت نفيسة طلباً للولد!

ولو أنّ هؤلاء النسوة دَعَوْنَ اللهَ العليمَ البصيرَ الخبيرَ الذي لا يَحْفَى عليه شيءٌ، واتجهن إليه لَكُنَّ قد أحسنَّ صنْعاً.

فهؤلاء النسوة يتخيلنَّ في هؤلاء المدعويين بعض الصفات التي هي فوق صفات البشر، من قدرةٍ خارقةٍ ومشيةٍ نافذةٍ.

ولو كان هذا الفعل صواباً لفعله صحابة محمدٍ ﷺ حين ضاقت بهم الشدائد والكربات، ومع هذا لم يُذكر عن أحدٍ منهم أنّه استغاث بالنبي ﷺ، مع توافرِ الدَّواعي لنقله.

بل إنّ الذي ثبت عنهم هو العكس، فحين أجذب المسلمون في عهد عمر بن الخطاب قال: (اللهم إنّنا كنّا نتوسل إليك بنبيك فتسقيننا، وإنّا نتوسل إليك بالعباس فاسقنا -يعني: بدعائه- ثمَّ قال: فمُ يا عباس! فقام العباس ودعا الله تعالى بالسقيا)، فلم يتجه عمر بالمسلمين إلى قبر النبي ﷺ طلباً للغوث؛ بل أخبر أنّهم كانوا في حياته

ﷺ يطلبون منه الدعاء بالسقيا فيدعو لهم، فلما مات طلب من العباس أن يدعو لهم، ولو كان الميت يسدي شيئاً لكان أولى الناس به محمد ﷺ.

ثم إن النبي ﷺ قد قال: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...»^(١) وقد عاب الله وذم المشركين الذين يدعون غيره في

آيات كثيرة، فقال تعالى: * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ

مِنْ فَطْمِيرٍ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا

لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٠١﴾ & ثُمَّ

أكد هذا المعنى بقوله تعالى بعد هذه الآية: * يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ

إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٠٢﴾ & ولا شك أن الخطاب مُتَوَجِّهٌ إِلَى

الناس عامة، فهُم إِلَى اللَّهِ تعالى فقراء غنيهم وفقيرهم، وصالحهم وغيره،

والولي وغيره، فكيف يُطلب الغوث ممن حكم الله تعالى بفقره وحاجته

إلى ربه جل جلاله!؟

ثم إن أولئك الذين يُعتقد صلاحهم خاصة قد بين الله تعالى أنهم

بأنفسهم يطلبون القربة إلى الله تعالى، ويرجون رحمته ويخافون عذابه،

قال تعالى: * قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٧٦٣).

الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٢١٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ &، فإذا لم يكن بأيديهم ما هو لصلاحهم هم فكيف يملكون لغيرهم نفعاً أو ضرراً؟!!

وإذا ثبت هذا بقول الله تعالى وإخباره عنهم، فكيف بعد ذلك يُطلب الغنى من الفقير، والمدد والعون والغوث من العاجز، والعطاء من المعدم؟!!

عماد: لكن من المعلوم أن النبي ﷺ يُغيث أمته!

محب: أخي! من الذي جعل هذا معلوماً؟!!

إن رسولنا ﷺ بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وهو يقول كما أمره الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وجسده الشريف في قبره لا يخرج منه إلى يوم القيامة.

عماد: ما الدليل على هذا؟ بل النبي ﷺ يخرج من قبره ليغيث أمته.

محب: مقالتيك يا عماد دعوى عريضة لا تصمد أمام الدليل، فقد قال ﷺ عن نفسه: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»^(١)، ولو كان الأمر

(١) رواه البخاري (٢٢٨١).

كما تقول لكان الأولى بالغيّاث الأمة الإسلامية المنكوبة اليوم دون
الأفراد!

فكيف يكون بوسعه غيّاها ثم لا يحصل ذلك منه بينما الأعرّاض
تُغتصب والأرض تُسلب والأرواح تُزهق؟!
ثمّ إنّهُ ﷺ قد كُذّب عليه بالآلاف الأكاذيب التي نُسبت إليه، فكيف
يَعَجْزُ عن بيان كَذِبِها إذا كان بوسعه أن يصنع شيئاً بعد أن مات؛ سيما
أنّه المكذوب عليه بما يُنسبُ إلى شريعته؟!!

فليكن في ذهنك - يا أخي - أنّه لا يوجد دليلٌ من كتاب الله ولا من
سنة رسول الله ﷺ يدل على خروج الأموات بأجسادهم من قبورهم؛
سواءً أكانوا أنبياء أم غيرهم، وما روي من منامات ومكاشفات لا يُعدُّ
دليلاً شرعياً يُعتمد عليه في هذه المسألة.

عماد: كلامك جيد، ولكن لعل رسول الله ﷺ يُغيثُ بروحه
وليس بجسده، وكذلك الأولياء يُغيثون بأرواحهم.

محب: أخي عماد! إنّ الحُكْمَ على الشيء فرعٌ عن تصوُّره،
فحُكْمُك بِإِغَاثَةِ الرُّوحِ الْمُسْتَغِيثِ بِهَا فِرْعٌ عَنِ تَصَوُّرِكَ لِأَوْصَافِ الرُّوحِ
بَعْدَ مَوْتِ صَاحِبِهَا، وَهَذَا قَذْفٌ لَغَيْبٍ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، قَالَ تَعَالَى: * قُلْ

الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٦﴾ &

ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ يَعتَبَرُ مِنْ شَطَطِ القَوْلِ وَمُجَانِبَةِ الحَقِّ؛ فَإِنَّ أَوْلَئِكَ
 الأَمْواتِ لَمْ يَكُونُوا فِي حَيَاتِهِمْ قَادِرِينَ عَلَى جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرِّ لَغيرِهِمْ
 لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُونُوا يَسْمَعُونَ مَنْ دَعَاهُمْ فِي مَكَانٍ غَيْرِ مَكَانِهِمْ
 وَهُمْ أَحْيَاءُ، فَكَيْفَ ثَبَّتَ لَهُمْ هَذِهِ القُوَّةُ الخَارِقَةُ وَهُمْ أَمْواتٌ؟!
 وَلَقَدْ أُوذِيَ بَعْضُهُمْ فِي حَيَاتِهِ بِمَا يَكْرَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى دَفْعِهِ عَنِ نَفْسِهِ
 وَقَدْ أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى، فَكَيْفَ يُصْبِحُ مُتَصَرِّفًا قَادِرًا عَلَى النِّفْعِ وَالضَّرِّ وَقَدْ
 مَاتَ؟!!

وللتأمل في حديث عبد الله بن مسعود ، فقد رَوَى أَنَّ
 أَصْحَابَ النَبِيِّ ﷺ سَأَلُوهُ عَنِ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فقال ﷺ:
 «أرواحهم في جوف طيرٍ خُضِرَ لها قناديلٌ معلقةٌ بالعرش، تَسْرَحُ مِنَ
 الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
 اِطِّلاَعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قالوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهُي وَنَحْنُ نَسْرَحُ
 مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مراتٍ، فلما رأوا أَنَّهُمْ لَنْ
 يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا، قالوا: يا رَبِّ! نُريدُ أَنْ تَرُدَّ أرواحنا في أجسادنا
 حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فلما رأى أَنَّ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكَوا»^(١).

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

فهم سألوا ربهم أن تُرد أرواحهم في أجسادهم، وهذا صريحٌ في أنّها قد فارقتها بالموت.

ثمّ إنهم تمنّوا الرجوع إلى الدنيا ليقاتلوا في سبيل الله لما رأوا من عظيمِ ثوابِ الشهادة فَمُنِعُوا مِنْ ذَلِكَ، فقد انقطع التكليف والعمل، وما بقي إلا الجزاء، فإذا لم يَمْلِكُوا لأنفسهم نفعاً ولا حياةً ولا تصرفاً مع كرامتهم عند ربهم ووجاهتهم عنده، فكيف يَمْلِكُونَ لغيرهم من الخلق جَلْبٍ منفعَةٍ أو دَفْعٍ مضرَةٍ!؟

فالأرواح تُغَايِرُ الأَجْسَادَ، فقد تكون في السموات في أعلى عليين وتردُّ إلى القبر لتردَّ السلام، ومع ذلك لا تُجُوزُ الاستغاثة بها.
عماد: لكنَّ الشهداء لا يموتون.

محب: صحيحٌ أنّ الشهداء أحياءٌ عند ربهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، ولكنها حياة لا تُمَاتِلُ حَيَاتِنَا المعهودة، ولو كانت كذلك لما جاء تقسيم تركة الشهيد أو زواج امرأته بعد عدتها.

فالميتُ بخلاف الحي، قال الله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

فما معنى الموت هاهنا؟ وما الذي يدلُّ عليه إذا كان يخرج من قبره ويُغيثُ الناس؟

فالأنبياء والشهداء أحياء، ولكنها حياةٌ برزخية خاصة لا نشعر بها، وليس لنا حياتها إلا التسليم والإيمان بالغيب دون الخوض في معرفة كنه ذلك لنلويهِ وفق ما تملّيه علينا أهواؤنا.

ولا يصحُّ لمستدلٍّ أن يأخذ ببعض النصوص ليجعلها حجة لشبهته ويترك سائر ما حكاه الله تعالى العليم.

فما دلت عليه النصوص جميعها هو الذي نُؤمن به ونُصدِّقه ونُسلم له.

ويكفينا قول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: ١٩-٢١].

وها أنت ترى كثيرًا من الناس يحرفون كلام الله ليأكلوا أموال الناس بالباطل! فهؤلاء يفترون على الله الكذب لتدوم لهم السيطرة على الناس، وهم يضلونهم بزعمهم أن رسول الله حيٌّ، وأنهم يرونه ويشاهدونه حقيقة.

عماد: أحد زملائي ذكر لي قصة، فقال: ذات مرة أصبت بكرب شديد، وحلّت علي مصيبة عظيمة، ولم أدرِ ما المخرج منها، ثم إذا بي أصرخ وأناادي: يا جيلاني! فأجاب هذا الولي دُعائي، وفرّج عني هذا الكرب، ونفّس عني هذا الضيق.

محب: الله تعالى هو الذي يُنجي من كل كرب، وحين كشف الله عن هذا الشخص مصيبتَه ظنَّ أنَّ الجيلاني هو الذي أنقذه، والله تعالى يقول: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

عماد: أنا لم أطمئن بعد، فالخضر وإلياس وعيسى عليهم السلام وكذا الشهداء ما زالوا أحياء، وهم يغيثون الناس ويلتقون بهم.

محب: حياة الشهداء حق، ولكن كيف يسوغُ لك أن تدعي الشعور بتلك الحياة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٩]!

عماد: موضوع الشهداء فهمناه، ولكن حياة الخضر وإلياس وعيسى ما قولك فيها؟

محب: أما حياة عيسى × فمعلومة؛ لأنَّ الله تعالى رفعه إليه،

وإذا سألك عبادي عني فإني قريب

كما قال سبحانه: * **بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ &** ولكن ما دليلك على أن الخضر وإلياس حيّان إلى هذا الزمان؟

عماد: أنا لا أختلقُ هذا من عندي، فوجود مثل هذه الحياة قد عُلِمَ بمُكاشَفات الأُولياء التي نُقِلت إلينا بالتواتر.

محب: لكنّ النصوص الشرعية تقطع بوفاتهم، فقد قال ﷺ: «ما من نفس منفوسة اليوم تأتي عليها مائة سنة وهي حيّة يومئذ» (١).

محب: أخبرني بالله عليك: ألم يمرّ بذهنك أن هذا الذي يدعو غير الله لا ينفك من اعتقاد أن هؤلاء الأموات أو الأحياء الغائبين يعلمون الغيب؟! وإلا فلم يدعوهم؟ وأيضا يعتقد أنّهم يتصرفون في هذا الكون، وإلا فلم دعاهم لكشف ضره؟ ولا شك أن هذين الأمرين عظيمان لا يوصف بهما إلا الله جل وعلا.

سكت عماد متعجبا !!

محب: أخبرني لم لا تجيب؟ إنك بدعاء المخلوق من دون الخالق تكون قد خالفت جميع رسل الله!

عماد: جميع الرسل! إنّ ديدنك هو المبالغة دائماً يا محب!

(١) رواه مسلم (٢٥٣٨).

محب: إني لا أبالغ يا صديقي! استمع لهذه الآيات لتعلم ما يفعل رسل الله وأنبيأؤه إن مسهم الضر:

فهذا أيوب × قال الله تعالى عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَىٰ لِلْعَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وذو النون يونس بن متى × قال الله تعالى عنه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمْرِ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

ويوسف بن يعقوب عليهما السلام قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣-٣٤].

وزكريا بن عمران × قال الله تعالى عنه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

* فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨-٣٩]. وقال عنه: ﴿ وَرَكَرِيًّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَرَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

وموسى بن عمران × قال الله تعالى عنه: ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ [يونس: ٨٨-٨٩].

هذا هو دعاء الأنبياء الذين اصطفاهم الله تعالى واختارهم، وهم خير البشرية، فالواحد منهم إن مسته البأساء أو الضراء رفع يديه لرب الأرض والسماء يدعوه ويسأله أن يكشف ما به من ضر، فلم لا نفتدي بهم؟!

بدا عماد واجما وهو يستمع لهذه الآيات البينات، وأحس باضطراب عجب، نظر إليه محب وسأله:

أخبرني يا عماد؟

عماد: عن أي شيء؟

محب: ماذا يقول من يدعو غير الله؟

أليس يقول: يا حسين! أغثني.

يا دسوقي! اشفني.

يا بدوي! انصري.

يا شاذلي! ارزقني مالاً أو ولدًا.

والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ^ط فَإِنِ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].. ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

عماد: سبحان الله! سبحان الله! سبحان الله!

بدأ عماد كمن لا يريد أن يوقف تسبيحه.

نظر محب في ساعته ثم أردف قائلاً: لقد تأخر الوقت وأنت مُتعب،

فلعلنا أن نلتقي مرة أخرى.

حاول عماد إبقاء محب ولو قليلاً، لكنَّ محباً تمنَّع، وتواعدا على اللقاء في الغداة في حُجرة محب.

عماد: غداً إذن.

وافترقا وكل واحد منهما تصطرع في ذهنه أفكارٌ شتى.

دلف محب إلى حجرتة وهو يفكر في الأحداث التي مرت عليه في هذا اليوم باستغراقٍ شديد، ردد بينه وبين نفسه وهو يتذكر حواراه مع عماد قائلاً: هداه الله، وتساءل مع نفسه: كيف يتعلق إنسان مسلم بغير الله بهذه الطريقة؟

ثم قام إلى مكتبه وكتب رسالة لعماد.



رسالة إلى عماد:

إذا سألت فاسأل الله

أخي الحبيب! رسالة صادقة أبعثها إليك:

إن نُصح نبينا محمد عليه الصلاة والسلام لأمته فوق كلِّ شُبْهة؛ فهو أعلم الناس وأنصح الناس وأفصح الناس ﷺ، وإشفاقه عليها ليس مجالاً للطعن، كيف لا وهو الذي بذل الغالي والنفيس في سبيل دعوته؟! فإذا أمرني وإيَّاك بأمر وجب تقديم أمره على كلِّ مقدم، وقد قال -بأبي وأمي هو- ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله»^(١).

إنَّ القلب ليُدْمى حُرقةً ولوعةً وأسىً حين تسمع السؤال لغير الله والدعاء لأصحاب القبور، والالتجاء إلى شخصٍ من البشر!!

أخي الحبيب!

ألا ترى تلك الجموع وقد حطَّت رحالها بباب البدوي أو المحضار أو الجيلاني؟! أتراهم على جادة أم عن الجادة نكصوا؟! وقد قال ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله»^(٢)!

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

أتراهم سألوا الله أم سألوا غيره؟

أيها الحبيب!

تأمل معي قول الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، هل تأملت لماذا هو قريب؟ ولماذا هو يجيب دعوة الداعي؟

الأجل أن يدعى غيره؟! أم لأجل أن يلتجأ إليه ويوحد في الدعاء؟!

حكّم عقلك..

تأمل قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسُطُ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

أتظن أن الماء سيبلغ فاه؟!

لا والله.

أتحب أن يكون وصفك كما هو في آخر الآية؟! إني -والله- مشفق

عليك.

وتأمل -أيها الحبيب- هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

أترى أنه بعد هذه الآية يجوز السجود لغير الله!؟

وتأمل آخر هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ
أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ
شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَهَ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ
الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

لا والله! لا يستوي الأعمى والبصير.

تأمل بعين بصيرتك هذه الآيات:

قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيم ×: ﴿وَأَعْتَرْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا آعَتْزَلْتُمُومًا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨-٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ
لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ
أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

إذا سألت فاسأل الله

ألا ترى أن الله تعالى جعل الدعاء عبادة؟! أفيجوز مع هذا صرفه
لغير الله؟

أخي عماد! تأمل هذه الآيات التي وصفت دعاء غير الله بأنه شرك،
ووصفت الداعي بأنه مشرك عافانا الله وإياك:

قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا
لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

فسمى دعاءهم غير الله شركاً.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ
أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ
إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا
عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ^ط وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ^ع تَوَمَّنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

وهذه آية تأملها قليلاً، وانظر هل ثمة تطابق بين حالين؟

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ^ع قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

أخي! ألا تخاف من الله؟! إنه يحكم على الداعي بأنه من أصحاب النار!!

أخي الكريم! أسمعت هذه الآيات؟!

فهل تحتاج بعد هذه الآيات إلى برهانٍ ودليل؟! ومع هذا فهأنت تسمع من طرفٍ قصي:

نادِ عَلِيًّا مُظْهِرِ الْعَجَائِبِ تَجِدُهُ عَوْنًا لَكَ فِي النَّوَابِ

وأخر تراه وقد التزم القضبان الحديدية لقبر نبينا محمد ﷺ، أو قبر السيدة زينب، أو قبر البدوي، وهو يبكي بكاءً مرًّا، وينشج نشيجًا متقطعًا يرجو ويخشى!!

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلام وإيمانٌ

فعلى نفسك فلتبك، وعلى يؤسك فلتحزن، أيدعى غير الله في

أرض الله؟!

استمع إلى كلام جعفر بن محمد بن علي الملقب بالصادق عليه رحمة

الله - وهو إمام من أئمة آل البيت - يقول: (فوالله ما نحن إلا عبيدٌ للذي

خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضر ولا نفع، إن رحمتنا فبرحمته، وإن

عذبنا فبذنوبنا، والله ما لنا عليه من حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنما

لميتون ومقبورون ومنشورون ومبعوثون وموقوفون ومسئولون...) إلى

آخر كلامه ./

ألم ترَ أنَّ الحقَّ تلقاه أبلجًا وأنَّك تلقى باطلَ القولِ لجلجًا

فأين ذهب عقلك وأنت تدعو غير الله؟!

أين ذهبت بصيرتك؟!

أين ذهب بصرك؟!

أرأيت الآيات المحكمات؟!

ومع هذا فإنك لتأسى وأنت تسمع بعض المصليين يستدل ببعض

النصوص لاويًا لها بما يوافق هواه، محرصًا على الشرك بالله، كمثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

فيقول: إن الوسيلة هي ما يتوسل به إلى الله.

وهذا صحيح، ولكن هل مما يتوسل به ذوات بني آدم وقبورهم؟
إن الوسيلة هي السبب الذي يقربنا إليه سبحانه من فعل الخيرات والأعمال الصالحة.

وليس مما يتوسل به ذوات الصالحين وقبورهم، وإنما المراد بالتوسل في الآية التوسل بالعمل الصالح: من إيمان وتوحيد ودعاء.

وتأمل هذه الآيات من سورة النمل، ثم تأمل تلك التعقيبات العجيبة آخر كل آية: ﴿أَمْ نَخْلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

إذا سألت فاسأل الله

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾

[الشعراء: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ

الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٦].

أرأيت صَوْلَةَ الحق؟! ألا ترى وضوح الحُجَّة وقوتها؟! هذا هو دين رسول الله ﷺ.. هذا هو دين أولياء الله.. هذا هو نهجهم.. هذه هي عقيدتهم، فأين نحن منهم؟! أين نحن من تطبيق منهجهم؟! واهًا لكم يا أولياء الله! فكم كُذِب على الدين باسمكم! وكم

افتري على الشريعة برفع شعار حبكم!

أيها الكريم! تأمل معي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤] ماذا تفهم من هذه الآية؟ ما الذي تعقله منها؟

أتفهم منها دعاء الدسوقي عند المصائب؟!

أم دعاء الحسين عند الكربات؟

أم اللجوء إلى المحضار عند المضائق؟!

أين عقلك؟! أين بصرك؟! أين بصيرتك؟!

إنَّ هذا كلام ربنا وخالقنا الذي له ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير، أتدري من هو الله؟!!

إنَّه القائل جل جلاله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وهو القائل: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

فتأمل تعقيبه: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾.

فكأن القوم باتوا مسحورين.

قد يمرُّ بخاطرك قراءة تك للقرآن وصلاتك وصدقتك وبكاؤك على أولياء الله ومحبتك لهم وزيارتك لهم، فتقول: أيكون كل هذا غير نافع لي عند الله؟!!

إذا سألت فاسأل الله

وأقول: بلى والله! هو نافعٌ لك وذخركُ لك عند الله، ولكن تأمل معي هذه الآية، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

أتدري ما معنى هذه الآية؟

معناها: أن كثيراً ممن يؤمن بالله وأنه خالقه ورازقه هو مع هذا مشركٌ وإن صلى وصام؛ لأنه جعل لله شريكاً في عبادته ودعائه. وقد يمرُّ بخاطرك قضية أخرى، وهي قول بعضهم: إننا لا نعبد هذه القبور، ولا نستغيث بالحسين، ولا نتوجه إلى البدوي، ولا نستعين بالرفاعي إلا لأنهم عبادٌ صالحون قد عبدوا الله حقَّ العبادَة، و وحدوه حقَّ التوحيد، فهم مخلصون في يقينهم وإيمانهم، وهم قريبون من ربهم، فنلتمس قربهم من الله كي يقربونا منه. وهذه والله دخيلةٌ شيطانية.

تأمل معي هذه الآية: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

كرر النظر في الآية، ألا ترى أن ثمة تطابقاً بين حالين عافاني الله

وإياك؟!

إنَّ الذي في الآية هو بيان ما كان عليه المشركون من شرك في دعوى شفاعاة معبوداتهم لهم عند الله تعالى، وهو نفس الحال الذي يقع من كثيرٍ من الناس اليوم حيث يزعمون شفاعاة من يدعونهم لهم عند الله، فيتخذون وسطاء بين الله جل جلاله وخلقهم.

أتدري ما يريد هؤلاء؟

إنَّهم يريدون القرب من الله، ولكنهم ضلوا الطريق، وكم من مرید

للخير لم يُصبه!

أخي الحبيب! أقرأت كتاب الله؟

هل تدبرته؟! هل تفكرت في آياته؟!

هل أنت معرضٌ عنه؟! إلى متى تستمر هذه الغفلة؟!

هل أعددت للآخرة زادًا؟! كيف تحاج عن نفسك عند الله؟!

كيف تدفع عنها العذاب وقد سمعت هذه الآيات الباهرات التي

تدلك على توحيدة؟!

هل تأملت في إخبار الله جل وعلا عن الأمم وهي جاثية كل أمة

تُدعى إلى كتابها؟ وهل تأملت في الحشر والنشور؟ وهل تأملت في

الحساب والجزاء؟

إذا سألت فاسأل الله

هل علمت أنك يومها وحيد لا رفيق ولا صديق، ولا أنيس ولا جليس إلا عمك الصالح: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُفُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَحْبَتَهُ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧-٣٤].

وأخيراً: أيها الأخ الكريم!

إنني أبعثها إليك رسالة واضحة صريحة، أمل منك أن تتلقاها بعقلٍ وبصيرةٍ واعية.

إن الأئمة من آل البيت، وإن أولياء الله الصالحين أئمة لنا، وهم خليقون بكل خلق ودين وورع، ولكنهم عبادة من عباد الله، مخاطبون بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ليسوا أرباباً، ولا يجوز دعاؤهم من دون الله.

أسأل الله أن يهديني وإياك سبل السلام، وصلِّ اللهم على محمد وآله.

محب



طوى محب الرسالة بعناية شديدة، ووضعها في ظرفٍ صغير، وخرج يسأل عن غرفة عماد، فأخذ رقم الغرفة واتجه إليها، ووضع الرسالة من تحت عقب الباب بعد أن طرق طرفتين خفيفتين عليه.

كان عماد في تلك الأثناء مستلقياً على سريره يتأمل ذلك الحوار الذي ودَّ لو طال قليلاً علَّه يستزيد، وبينما هو في تفكيره إذا به يسمع تلك الطرقات ويرى ذلك الظرف الصغير.

قام مسرعاً إلى الباب وفتحه، ولكنه لم ير أحداً، فأخذ الظرف وعاد إلى سريره وهو يمزق الغلاف الخارجي للرسالة، فتحتها وإذا بها من محب، تبسّم عماد، فكم يجب هذا الرجل مع قصّر معرفته به!

بدأت عيناه تلتهمان الكلمات الواحدة تلو الأخرى، لقد كان وقع الآيات قوياً على عماد، وبدأت الدمعات الساخنة تنحدر على خديه وهو يتذكر ما كان يفعله ويأمر بفعله عند تلك المشاهد والقبور، ويقارن تلك الأفعال بهذه الآيات البينات.

رفع يديه إلى السماء داعياً الله أن يغفر له، ثم قام إلى مصلاه فركع وسجد ودعا.

انتهى من صلاته واستلقى على سريره.

مرَّ بذهنه مجموعة من الآيات والأحاديث التي لم يتذكرها أثناء حوارهِ لمحِب، فلا بد له من مناقشة محب فيها، ثمَّ أغمض جفنيه وراح في نوم عميق.



ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها

في الموعد المحدد طرق عماد على محب باب حجرته، وقد كان محب في انتظار صديقه، وكان قد أعدَّ كوبين من الشاي، وحينما جلسا ابتدر عماد محبًا بقوله:

لقد تأملت البارحة في كلامك، وقرأت الرسالة التي كتبتها لي جزاك الله خيرًا، وقد رأيتُ فيها صوابًا كثيرًا، ولكن مرَّ بخاطري بعض الأحاديث التي تميز... وانتقل فجأة قائلًا: (حديث الأعمى) هذا الحديث من المهم جدًا أن نتناقش فيه، وأنا أعلم أنك لا تقول بالتوسل، والحديث صحيح، أليس كذلك؟!

محب: من الذي أخبرك أننا لا نقول بالتوسل؟

عماد: هذا معروف عنكم ولا يحتاج إلى دليل!

محب: هذا ما يُشاع، ولكنَّ الصواب أن يقال: **إنَّ كلَّ مسلمٍ لا بد**

له من أن يتوسل إلى الله وفق ما شرع الله تعالى.

ولكن لفظ (التوسل) يحتاج إلى تبيين وتوضيح، فالتوسل له

أقسام:

عماد: ما المراد بقولك: له أقسام؟

محب: أي أن فيه ما يجوز وما لا يجوز، وما هو مشروع وما هو

ممنوع، وما يصح التعبد به وما لا يصح التعبد به.

وضع عماد كوب الشاي على الطاولة التي أمامه، وقال: كُليَّ آذانُ

مصغية.

محب: التوسل المشروع أنواع:

النوع الأول: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى،

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] مثل أن

تقول: اللهم إني أتوسل إليك بأنك أنت الغفور الرحيم أن تغفر لي.

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بالإيمان به، كما قال تعالى حاكياً

دعاء الأنبياء والصالحين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ

النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].. ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا

بِرَبِّكُمْ فَءَامِنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

﴿رَبَّنَا ءَامِنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، وذلك مثل ما جاء في حديث أصحاب الغار، حيث توسل أحدهم ببره لوالديه، والثاني بعفته، والثالث بأدائه للحقوق.

النوع الرابع: التوسل إلى الله تعالى بطلب الدعاء من الحي الحاضر، فقد كان من الصحابة من يأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام فيطلب منه الاستسقاء لعموم المسلمين، أو يأتي فيطلب حاجته الخاصة، كما طلب الأعمى الدعاء له برَدِّ بصره، ولا يشترط في هذا أن يكون المطلوب منه أفضل من الطالب، فقد طلب عمر ومعه السابقون الأولون من العباس بن عبد المطلب الاستسقاء؛ لصلاحه ومكانته من النبي ﷺ، ومما لا شك فيه أن عمر أفضل من العباس رضي الله عن الجميع.

عماد: إذا هذه الأنواع كلها يجوز للمسلم أن يتوسل بها إلى الله تعالى.

محب: نعم.

عماد: هذا القسم الأول، فما هو القسم الثاني للتوسل؟

محب: القسم الثاني: هو التوسل الممنوع، وله أنواع:

النوع الأول: التوسل إلى الله تعالى بذات الشخص المتوسل به؛ سواء أكان النبي ﷺ أم أحد الأولياء، وذلك مثل قوله: اللهم إني أتوسل إليك بفلان؛ وذلك لأنه لم يدل دليل شرعي عليه، والتوسل عبادة، والعبادات مبنية على التوقيف، ثم إنَّ الدليل دلَّ على خلافه، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأحقاف: ٥].

النوع الثاني: أن يكون بجاه الشخص المتوسل به؛ سواءً أكان النبي ﷺ أم غيره، كأن يقول المتوسل: بحق فلان أعطني مالاً. أو: بجاه فلان ارزقني ولداً.

النوع الثالث: التوسل بالإقسام على الله بالتوسل به، كأن يقول: اللهم إني أقسمت عليك بفلان أن تشفي مريضى، أو تقضي حاجتى. وهذا لا يجوز؛ لأنه إقسام بالمخلوق، والنبي ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»^(١).

بدأ الضيق على عماد، فقال مقاطعاً: محب! كلامك واضح، ولكن لم تجبني عن حديث الأعمى حتى الآن.
رَشَفَ محب من الكوب الذي أمامه بتأنٍ، ثم قال:

(١) رواه الترمذي (١٥٣٥)، وأبو داود (٣٢٥١).

أولاً: هذا الحديث في سنن الترمذي وابن ماجه ومسنده أحمد

هكذا:

عن عثمان بن حنيف: أن رجلاً ضريراً البصر أتى النبي ﷺ فقال له: ادعُ الله أن يُعافيني، قال: **«إن شئت دعوتُ، وإن شئت صبرت فهو خيرٌ لك»** قال: فادعُه.

قال: فأمره أن يتوضأ فيُحسنَ وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: **«اللهم! إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمدٍ نبي الرحمة، يا محمد! إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم! فشفِّعه فيَّ»** (١). ولا بدَّ لك أن تعلم ابتداءً أن هذا الحديث مختلف في صحته، فبعض العلماء يصححونه وبعضهم يضعفونه.

فإذا قلنا بصحته فلا بدَّ لك من أن تعلم أن الأعمى جاء إلى النبي ﷺ ليدعوه له؛ إذ لو قصد هذا الصحابي التوسل بذات النبي ﷺ أو بجاهه لكفاه عن المجيء أن يجلس في بيته، ويقول: اللهم إني أسألك بجاه نبيك وبحقه ومنزلته عندك أن تشفيني. فلمَ لم يفعل ذلك؟ إنه ما ترك ذلك إلا لقصد التوسل الجائر، وهو التوسل بدعاء الرجل الصالح.

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٨)، والنسائي في الكبرى (١٠٤٩٥)، وأحمد (١٧٢٧٩).

ولو دَقَّقْت في الحديث لوجدت الأعمى يقول للنبي ﷺ: (ادع الله أن يعافيني)، وهذه عبارة صريحة في أن هذا التوسل إنما هو طلب للدعاء من النبي ﷺ.

وأخيراً! تأمل في قوله: (اللهم فشفعه فيّ)، فهذا دليل صريح على التوسل بالدعاء لا بذاته ولا جاهه.

ولابدَّ لك أن تعلم أن التوسل المذكور في النصوص الشرعية هو ما تقدم شرحه في التوسل المشروع، ولم يكن في فهم سلفنا الصالح التوسل الممنوع، وعليه فقوله: (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد) هذا دعاء في حضور النبي ﷺ وليس في حال غيَبته.

ألم يقل الله لنبيه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؟!

بَدَا الوجوم على عماد.. هاهي الأدلة تتساقط دلالاتها الواحد تلو الآخر!!

إنَّ مسألة التوسل بالصالحين تُعدُّ ركنًا ركينًا في عقيدته، وهاهو يكتشف أن ثمة فهمًا آخر أكثر إدراكًا من فهمه يُميز التوسل ويربطه بالله العظيم.

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها

ولكنه مع هذا لم يُسَلِّم لمحَب؛ بل أراد أن يَسْتَنْفِد ما في جُعبَتِهِ، فقال: فما قولك في هذه الآية التي تدل على مشروعية التوسل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]؟

فقد كانوا يأتون النبي ﷺ ليستغفروا لهم الله، فكان كذلك يفعل، وهذا ما يفعله الناس مع الأولياء؛ لأنَّ الأولياء ورثة النبي ﷺ يفعلون ما يفعل.

محَب: لا بدَّ لك أن تعلم أن التوبة هي العودة، وأنَّ الاستغفار هو طلب المغفرة، وندم المرء على ما اقترفه من ذنوب، وعقده العزم على عدم الرجوع إليها أبدًا يعتبر توبة لا يُشترط لها شيخٌ يُرجع إليه لعقدها. ثمَّ إنَّ الآية التي قرأتها نزلت فيمن ترك حكم الرسول ﷺ وأخذ بحكم الطاغوت، فأمر بالمجيء إلى النبي ﷺ وطلب أن يُستغفر لهم. وقوله: * **جَاءُوكَ** & تدل على حال الحياة.

وَأنت إذا نظرت في أصحاب النبي ﷺ تجد أنه لم يأت أحدٌ منهم إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله مستغفراً، فهل نحن أولى بفهم كلام الله منهم؟

ومعلوم أنه لا يُقال لمن أتى قبر الرسول ﷺ: إنه جاء إلى الرسول ﷺ، بل أتى قبر الرسول ﷺ!

ولو تأملت قليلاً؛ فإنَّ كثيراً من الآيات في القرآن تدل على رحمة الله تعالى بعباده، وقبوله توبتهم، والآية بتامها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

كان الصراع على أشده في نفس عماد، فهو يقبل مرة ويُدبر أخرى، وهو مع هذا لم يقبل الاستسلام بسهولة، فرفع صوته قائلاً:

قولوا ما شئتم أن تقولوا، وأما نحن فنؤمن باتخاذ أرواح الأولياء والشيوخ الكرام وسطاء بين الله وعباده، فتتوسل بهم ونستمد من مددهم.

محب: أين أنت من قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؟! أي: لا استعانة إلا بك، ونحن نفرؤها كل يوم مرات عديدة.

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسِّسُ بِهِ نَفْسُهُ ۗ وَحَنُّنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فإذا كان الله تعالى

أقربَ إلينا من حبل الوريد فأبني موضع بقي هؤلاء الشيوخ ليُتحموا فيه أنفسهم فيقفوا بين الله تعالى وعباده؟!

تبسم عماد كمن ظفر بشيء، ثم قال: جاءني طالبان من إحدى الكليات فسألاني السؤال نفسه، قالوا: إذا كان الله أقربَ إلينا من حبل الوريد فما للشيوخ في الأمر؟ فقلت لهما: أتقرآن القرآن؟ قالوا: نعم. قلت: من يقرئكما؟ قالوا: مُعلِّم القرآن، فقلت لهما: أليس الله أقربَ إليكما من معلم القرآن؟ فلم احتجتهما إلى غير الله لتتعلموا القرآن؟ فقالوا: نعم. أنت على حق.

محب: ما العلاقة بين اتخاذ إنسان معلِّمًا للقرآن واتخاذ واسطة بين الله تعالى وعباده في الدعاء؟

أين التوسل في هذا؟!

أو كل من كان معلِّمًا للقرآن لزم أن يكون واسطة بين الله تعالى وعباده؟!

عماد: ألا نتوسل بحُرمة الأولياء في دعائنا حتى يستجيب الله لنا؟

أفلا ندعو بهذا الدعاء: (يا رب! استجب دعائي بحق محمد، أو

بجاه سيدي عبد القادر الجيلاني)؟

محب: من الداعين من يفعل هذا، لكنّه باطل غير جائز.

يقول ابن أبي العز الحنفي في هذا الأمر:

«ولا يجوز الحلف بغير الله، ولا أن يسأل بسببه ويؤسّل به»، فكأنه

يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعائي!

وأئي مناسبة في هذا؟ وأئي ملازمة؟ وإنما هذا من الاعتداء في

الدعاء، وقد قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وهذا من الأدعية المبتدعة، ولم يُنقل عن

النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة

، وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والأحجبة التي يكتبها الجهّال.

عماد: أومدد الشيخ أيضًا تردّه ولا تؤمن به؟ أمّا أنا فأعمالي كلّها

في غاية ما يُرام بفضل مدد شيخي، وهذا أراه وأعيشه.

محب: حين تذكر مدد الشيخ فأنت لا تقصد علاقةً خاصة بينك

وبينه، أنت تقصد عونًا معنويًا، أليس هذا ما تعني؟

عماد: بلى.

محب: لماذا لا تنسب المعونة إلى الله تعالى؟

عماد: الله تعالى يُعين المریدين لما لشيؤخهم عند الله من المنزلة

العالية.

محب: تأمل قليلاً في هذه الآية: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧].

وأنت تؤمن بشفاعته شيخك فيك يوم القيامة، فإذا كان الشيوخ ينقذون مرديهم في الدنيا والآخرة فلا شك أن أعظم ما على المرید فعله هو نيل رضا شيخه والسعي وراء ما يقرب إليه، فلا يبقى معنى للتضرع إلى الله تعالى إذن!

إنَّ طريقك هذا طريق شائك، فإن لم ترجع عنه فإني أذكرك شرَّ نهايته!!

عماد: ثم ماذا عن الشفاعة؟ فنحن نعيش في وئام تام مع الشيخ، ولعلنا نمسك بإزاره يوم القيامة، فلعله ينفعنا.

محب: تعني أنه سيكون شفيحاً لكم؟!

عماد: ولم لا؟!

محب: من أين للشيخ الإذن بالشفاعة؟ من هذا الشيخ الذي فوض إليه أمر الشفاعة؟

إننا نقرأ آية الكرسي دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ، فنقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولو أنكم عملتم لتنالوا رضا الله لكان خيراً لكم من إرضاء غيره.

عماد: نحن نعمل كل شيء إرضاءً لله تعالى.

محب: وهل ينال رضا الله من يعمل بها يسخط الله؟!

تأمل هذه الآيات: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ* وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ* حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِليٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

ولا يملك الشافعون أن يشفعوا إلا فيمن أذن الله تعالى أن يشفعوا فيه.

وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ آرْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ حَشِيَّتِهِ* مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

عماد: ليس ترددنا على شيخنا إلا لاعتقادنا شفاعته فينا، ومثل حالنا كمثل من يوكل محامياً للدفاع عنه، فإنه في غالب الأحوال يربح قضيته وإن لم يكن مجبراً على توكيله، وكذلك نحن مع شيخنا؛ إذ هو محامينا.

محب: أو جعلت الله الذي يعلم الغيب والشهادة مثل القاضي؟!!

لقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفُزُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ * وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ *

وَبَنِيهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧، ٣٤].

فإذا كان الحال هكذا يوم القيامة فكيف سيجد شيخك فرصة

ليحامي عنك فينقذك؟!!

عماد: إذا أردت أن تقابل مستولاً ذا منصب عالٍ فعليك أن تعبر

عن طريق البواب، ثم يُقدِّمك شخص آخر إليه؛ فإنه لا يُدخل على مستول أو حاكم فجأة دون سابق علم، فكذلك الأمر بيننا وبين الله، فإنَّ الشيخ هو وسيلتنا وواسطتنا.

رَفَعَ محب حاجبيه مستنكراً!! ثم قال: كيف تقول هذه المقالة في

حق الله الذي هو أقرب إلينا من جبل الوريد؟!!

ثمَّ قال محذراً: هذا الكلام يغمس صاحبه في الشرك، ففي سورة

يونس يقول الله تعالى: * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَتُولاَءِ شُفَعَاتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ &.

فالرجاء منك أن تُعرض عن مثل هذا المعتقد الباطل، فكثيراً ما يضل الشيطان الإنسان بمثل هذه الحيل.

وأريدك أن تجيبي: الله الذي خلقك ويطعمك وينشئك وهو

أقرب إليك من نفسك أهو أعلم بك أم شيخك؟

عماد: لا شك أن الله أعلم بي منه.

محب: فلماذا تترك من يعرف سرّك وعلايتك إلى غيره؟

عماد: ... ؟!

كان اللقاء عاصفاً جدّاً، هاهو عماد الذي بكى تائباً يعود مجادلاً

مُعانداً، ثم ينقلب حائرًا لا يُجيز جواباً!!

تمتّ محب منهياً الحديث: الله المستعان! الله المستعان! لا بدّ لكلّ

مسلم من أن يتأمل ما يعتقد حتى لا يضل ويضل، إني أنصحك أن

تقرأ كتب العلماء المحققين.

وانفضَّ المجلس على وعدٍ بقاء قريب.

وصلت السفينة إلى مدينتهم الجميلة، شقَّ عماد الطريق إلى منزله بخطوات عجلة، سلّم على أبيه وإخوانه، وقصَّ عليهم وهم متحلّقون حول الغداء أخبار رحلته البحرية، تابعت أنفاسهم وهم يستمعون لقصة غرقه، بدت نبرة الإعجاب واضحة في صوت عماد وهو يتحدث عن شهامة ذلك الرجل الذي أنقذه.. إنه يختلف معه، ولكنّه يجبه ويحترمه، كذا ردد بينه وبين نفسه.

عَمَّعَ والده قائلاً: لا بدّ من أن أزور هذا الرجل لأشكره على صنيعه معك.

كان أبوه رجلاً وقوراً علاه الشيب فزاده وقاراً، ولكنّه لا يقبل من أحدٍ أن يتحدث في الأولياء والصالحين بمثل قول محب.

ذهب كل واحدٍ من أفراد العائلة إلى حجرتة، حَرَصَ عماد على عدم ذكر ما حصل له مع محب من حوارات تلت ذلك الإنقاذ؛ لمعرفته بموقف والده من نقاش تلك الأمور، وتشدده فيها.

قضى عماد ليلة ليلاء، وظلت تجول برأسه أفكار كثيرة، ويستعرض صوراً مختلطة متداخلة.. أحقُّ أنه يعيش في باطل ويدعو إلى باطل؟!!

مَرَّتْ بذهنه صور مشايخه، رفع صوته وهو يقول: لا، لا، لا..
أَيَعْقِل أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ أَيضًا؟!

ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى الوسادة وَرَاحَ فِي نومٍ عميق.

رَأَى فِي منامه أَنَّهُ فِي مجموعة مِنَ الناس يركضون وهم عرارة تلحق بهم نار عظيمة جدًا، وهو يركض بشدة كي لا تدركه النار، وهو ينادي بصوتٍ مرتفعٍ يَصُمُّ الأذَان: يا جيلاني! يا دسوقي! يا محضار! أغثني، الحقتني، إني أحترق.. ولكن لم يجبه أحد.

أدركته النار، وبدأ جسده في الاحتراق وهو يصرخ صرًا شديدًا.

هَبَّ مِنْ نومه وهو يلهث، وصدرة يعلو ويهبط وهو يردد:

يا الله! يا الله! يا الله!

وَحَمِدَ الله كثيرًا على أَنَّهُ لا يزال في فراشه.

ثُمَّ استلقى على ظهره إلى أن سمع المؤذن وهو يردد: (أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله)، فقام وتوضأ وخرج إلى المسجد القريب.

قرأ الإمام في صلاته من سورة الفرقان، كانت قراءته جميلة رقراقة:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

أَصْرَفَ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّا عَذَابُهَا كَانَ عَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ
قَوَامًا وَالَّذِينَ ﴿٦٧﴾ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٩﴾



وعنده مفاتيح الغيب

في الصباح الباكر أتصل عماد بمحب:

عماد: السلام عليكم.

محب: وعليكم السلام، أهلاً ومرحباً.

عماد: أود أن ألتقي بك.

محب: أهلاً ومرحباً، ما هو الوقت الذي يناسبك؟

عماد: في المساء.

محب: بإذن الله سوف أمر عليك في منزلك.

مرَّ محب على صديقه، طرَّق الباب فوجد عماداً في انتظاره، دخلا المنزل، كان منزلاً متواضعاً، فهو شقَّة في عمارة مكونة من أربعة طوابق، كانت الشقَّة مكونة من أربع حجرات مؤثثة أثاثاً متواضعاً، ولكنه جميل.

دَلَّفَا إلى غرفة الجلوس، كانت أسرة عماد في زيارة عائلية.

قَصَّ عماد على محب القصة التي حصلت له في منامه، فلم يُعلِّق

محب؛ بل اكتفى بأن قال: سبحان الله! سبحان الله! هذا عجيب!

وعنده مفاتيح الغيب

أراد عماد أن يأخذ بزمام المبادرة، فقد كان لديه أمرٌ يؤرِّقُه كثيرًا يؤدُّ المناقشة حوله.

عماد: من المعلوم أنَّ الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، ولكن ألا يُطلع الله الأنبياء والأولياء على ما يجري في القلوب، وما يمرُّ بالخواطر كرامةً لهم؟

محب: علم الغيب من خصائص الله تعالى، فقد قال تعالى: * **عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا** ﴿٦٤﴾ **إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا** ﴿٦٥﴾ &، فلا يعلم الغيب أحدٌ غير الله تعالى، والرسول أنفسهم لا يعلمونه إلا بإعلام الله تعالى لهم ما يريد هو، وقد أمر رسوله ﷺ أن يقول: * **وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ** &، فإذا كان هذا حال الأنبياء فكيف يكون حال الأولياء الذين لا يُوحى إليهم بشيء؟! وقد قال تعالى: * **قُلْ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴿٦٥﴾ &.

عماد: ألم يقل الله على لسان يعقوب ×: **﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَن اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** [يوسف: ٩٦]؟

محب: هل تقصد أن يعقوب × كان يعلم الغيب؟ هكذا تساءل محب، ثم أَرَدَفَ قائلًا:

لو كان صحيحًا ما ذكرت فلماذا وافق على تسليم يوسف لإخوته بعد أن قرروا اللقاء في البئر؟ وهب أنه سَهَا عن ذلك، فلماذا لم ينقذه من البئر بعد أن جاءه إخوته يبكون وقد علم ما في قلوبهم وابنه أقرب ما يكون منه؟ ولماذا ابيضت عيناه من الحزن على ولده؟!

أما الفهم السليم لهذه الآية فبينك وبينه بون شاسع، ففي صدر السورة يقص يوسف على أبيه رؤياه، ففهم أنه سيكون رسول الله، وأيقن بذلك، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَ يَبْنَئِي لَأَ تَقْضُصَ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رُءْيَاكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: ٤-٥].

وفسرت الكواكب الأحد عشر في الرؤيا بإخوة يوسف الأحد عشر، والشمس والقمر فسرا بأمه وأبيه، وفي يومٍ مستقبلٍ كانوا

وعنده مفاتيح الغيب

سيسجدون له سجود تعظيم وتقدير، وكان يعقوب × ينتظر تحقق رؤياه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۗ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

فالآية التي تستدل بها على جواز علم الغيب لا تدل على ما ذكرته.

عماد: أليس الله قادرًا على ذلك؟

محب: إنَّ الله على كل شيء قدير، لكنَّه سبحانه أخبرنا أنَّ الغيب استأثر به، كما في قوله تعالى: * وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وقوله تعالى: * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ عَلَى الْغَيْبِ &، فإذا تبين هذا فمن الذي يستطيع أن يدعي خلاف قول الله تعالى؟

عماد: الله تعالى يقول: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا

﴿ إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧]، ولما كان أولياء الله تعالى ورثة الرسل، وكان خبر الغيب يأتي الرسل، فكذلك الأولياء تأتيهم أخبار الغيب!

محب: عليك أن تقرأ الآيات كاملة حتى تفهمها بشكل جيد، قال

تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٥٦﴾ إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٥٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدَّ

أَبْلَغُوا رِسَالَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٦﴾ [الجن: ٢٦]-

.[٢٨]

فالآية - كما هو واضح - تدلُّ على أنَّ الرسول إذا أطلع الله تعالى على شيء من الغيب يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً وهو رسول، فكيف تدَّعي هذا العلم لغيره؟!

أما قولك: إنَّ الأولياء هم ورثة الرسل في علم الغيب فأخبرني بالله عليك من أي كتابٍ أخذت هذا؟! أم هي الدعاوى التي لا تصمُّد أمام الأدلة الصحيحة؟!

عماد: أفهم من هذا أنك لا تؤمن بالثلاثة ولا السبعة ولا الأربعين من رجال الغيب، ولا بالأقطاب ولا الأغواث، ألا تعلم أن الأولياء العظام يقال لهم: الأوتاد، ثم فوقهم الرواسي؟! فإذا ما وقعت كارثة توجَّه العباد إلى الأوتاد، والأوتاد يتوجهون إلى الرواسي، ثم يقضي القطب حاجة الرواسي، ويقال للذين يليان القطب في المرتبة: الإمامان ويقال لأحدهما: الإمام اليمين، وللآخر: الإمام اليسار، واليمين يمثل أحكام القطب، ويمثل اليسار حقيقته، ثمَّ إذا مات خلفه الإمام اليسار، ويقال لهم مجتمعين: الثلاثة.

وعنده مفاتيح الغيب

والقطب أعظم ولي، وهو كبيرُ رجال الغيب، حيث يتصرّف في المخلوقات بإذن الله، وهو الذي يُدعى عند الشدائد، ويُلجأ إليه ويستعان به.

والغوثن: هو الذي يناديه الصوفية عند الشدائد بقولهم: (يا غوث!)، فيجيب نداءهم، وعبد القادر الجيلاني اشتهر بلقب: (الغوثن الأعظم).

ثمَّ إنَّ كلَّ هذا الالتجاء والاستمداد - وإنَّ أريد به الغوث في الظاهر - إنما هو في الحقيقة يقصد به الله؛ لأنَّ المتصرف الوحيد في العالم هو الله تعالى، لا يشاركه أحد مطلقاً، والذي يُعرف بالغوثن تتجلى فيه صفات الله وأسمائه الحسنى.

ومن دون هؤلاء النجباء، وعددهم ثمانية، وفي رواية أربعون، والنقباء عددهم إما عشرة وإما ثلاثائة، ومن رجال الغيب من يعرف أسرار القلوب، وبصفة عامة فإنَّ رجال الغيب المعروفين بأولياء الحق لا تبقى مقاماتهم شاغرة أبداً، فإنَّه يُخلفهم بعد موتهم الذين هم دونهم. استمع محب لهذا الهراء مذهباً ومتعجباً في الوقت نفسه، ثم قال: ألك دليلٌ تستند إليه في مقاتتك هذه؟ أيُّ دليلٍ تستند عليه؟ ثمَّ هأنت تقول: القطب أعظم الأولياء وأكبر رجال الغيب، وهو صاحب

التصرف بإذن الله في الكائنات! ألا يُشبهه تعريفك هذا ما كان يقوله مشركو مكة أثناء طوافهم بالبيت: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك)؟!!

إنَّ ما تقوله باطل محض، إنَّك بهذا الكلام قد جعلت المخلوق المرئوب المقهور خالقاً متصرفاً عليماً، فإذا كان مَنْ ذكرت هم الذين يُتَّجِه إليهم في الشدائد، وهم الذين يعلمون خفايا النفوس وأسرار الضمائر، فما هو الذي بقي لله جل جلاله وعزَّ شأنه ليوحد به؟!!

وكيف سيكونُ إله الكون واحداً منفرداً بالخلق والتصريف والتدبير مقصوداً بالعبادة إذا كان هؤلاء الذين ذكرت لهم ما لهم من الخصائص؟!!

إنَّ هذا الهراء الذي ذكرتهُ يحوي شرّاً أعظم من شرك المشركين الأولين.

عماد: إنَّ الله يكلف الأولياء بالحفاظ على نظام الدنيا المادي والروحي لضمان الخير وإزالة الشدة، وهؤلاء يقال لهم: الأبدال، وهم الذين يخلفون الأنبياء، ويقال بأنهم هم الذين سخر لهم ما في الأرض، وليس الأمر كما توهمت من كونهم يتصرفون في الكون تصرفاً مطلقاً.

محب: أخبرني مَنْ هو النبي الذي أسندت إليه أمانة الحفاظ على

نظام الدنيا الروحي والمادي، وضمان الخيرات وإزالة الأضرار حتى يصلح القول بأن الذين ذكرت يخلفونهم؟!!

إنَّ الله تعالى يأمر نبيه ﷺ - وهو سيد ولد آدم وخير الأنبياء والمرسلين - أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ تُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ؕ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ [الجن: ٢١-٢٣].

فأمر الحِفاظ على نظام الدنيا وضمان الخير وإزالة الشر بيد الله تعالى وحده، فاعتقاد أن أحدًا له القدرة على التصرف في هذه الأمور شركٌ بالله عز وجل.

ولو كان للنبي عليه الصلاة والسلام هذه القدرة لاستعملها لإرغام الكفار على الإيمان، وربنا عز وجل يقول في هذا الأمر: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِغَايَةِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

بدأ عماد هنا كمن يريد أن يتخلص من إرثٍ قديمٍ عَشَعَشَ في

رأسه، فهو يريد طرح كل ما لديه مرة واحدة مستفيدًا من جلوس محب معه.

عماد: قد يُوحى الله تعالى إلى الشيوخ بعض الأمور، أليس قد أوحى الله تعالى إلى أم موسى، فقال: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾** [القصص:٧]؟! ولقد أوحى الله تعالى إلى النحل، فقال: * **﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾** [النحل:٣٨]؟!&

فما المانع من أن يوحى إلى الشيوخ؟

محب: لفظ الوحي في الآيتين المذكورتين جاء بمعنى الإلهام، أي: أن الله أشعر خلقه أولئك بما أراد أن يجعلهم يشعرون به، فوجدوه في أنفسهم.

لقد دخلتم بتأويلاتكم هذه في متاهاتٍ مهلكة، إنكم تحاولون أن تنزلوا أنفسكم منازل الرسل والأنبياء حتى تتمكنوا من ادعاء تلقي الوحي؛ لأنكم لم تستطيعوا بأيِّ حالٍ من الأحوال أن تتصوروا أنفسكم غير عالمين بالغيب.

وأنتم تجدون بين أيديكم كثيرًا من الآيات والأحاديث البينات،

فتغضون عنها الأنظار، ثم تأتون بآيات لا صلة لها بالموضوع، وتحاولون أن تستنبطوا منها أدلة لما تزعمونه.

عماد: جاء في الحديث القدسي قوله تعالى: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١).

ثم يصل به الحال إلى أن يفتن لما لا يتفطن إليه غيره، وأن يعلم إلى حد قريب من الصواب ما يمر بعقل وخاطر الإنسان، فما هذا إذن؟
محب: هذه فراسة، والفراسة الإصابة في الرأي والتخمين.

وإذا أردت أن تفهم المراد بذلك، فاقراً قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ﴾ [الأفال: ٢٩].

والحديث القدسي الذي ذكرته جاء فيه أن الله تعالى قال: «... وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي

(١) رواه البخاري (٦١٣٧).

يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لَأُعطينَّه، ولئن استعاذني لَأَعينَّه»^(١).

والذي يتَّقِي الله تعالى فيعملُ بأوامره ويحْتَنِب نواهيه يُدْرِك حُسن ما أمر الله به وقُبْح ما نهى عنه، والأصل في هذه الفراسة أنَّ المرء يكون متقياً لله في كل أحواله فيصرف سمعه وبصره عن محارم الله.

وعلينا أن لا نعدو بالفراسة قدرها ونتجاوز بها حدَّها، وكون المرء فاضلاً لا يقتضي أن يكون على صواب.

سادت فترة صمّت عميقة، أطرق عماد خلالها إلى الأرض لا يدري ما يقول إزاء هذه الكلمات.

ثم بادره محب ليغيّر الموضوع قائلاً: لماذا لا نؤجل الحديث إلى لقاءٍ آخر؟



(١) تقدم تحريجه.

مرّت الأيام بطيئة على عماد، فهو يريد لقاء محب ويمنعه الحياء من أن يتصل به، وقدّر الله أن يلقاه فجأة في أحد الأسواق، ولم ينتبه محب إلا على صوت عماد وهو يسلم عليه، التفت محب وإذا به يرى عمادًا أمامه، تمّم محب بكلمات الترحيب وعاتبه على عدم الاتصال به المدة الماضية، أصابت عمادًا حُمْرة الخجل وهو يستمع لعتاب محب، ولكنّه بادره قائلاً:

لماذا لا ترتب موعدًا؟

محب: أنا رهن إشارتك.

فتواعدا على الجمعة القادمة في المساء.

في الموعد المحدد وصل عماد إلى الحيّ الذي يقطنه محب.

طرق الباب، كان محب في انتظاره.

أدخله المنزل واستأذن لدقائق معدودة، قلب عماد نظره في منزل

محب، وردّد في نفسه: إنه منزل صغير لكنه أنيق وليس فيه تكلف.

أحضر محب إناءً كبيرًا فيه أنواع من العصائر، وعلى وجهه ابتسامة

عريضة، ولسانه يردد عبارات الترحيب.

بدًا عماد كمن يستتجِث الحوار، قال لمحِب:

ماذا تعرف عن العلم اللدني؟

محب: أخبرني ماذا تعرف أنت؟

عماد: الذي أفهمه أنه ما يُتعلّم بواسطة الإلهام والكشف وهو لا يحصل بإعمال العقل والفكر وبالتمارين الذهنية، ولكنه يقع لصاحبه من قِبَل الله.

محب: في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] تذكر الآية التعليم، والكشف والإلهام ليسا طريقًا للتعليم.

عماد: الشيوخ أهل العلم حقًا هم ذوو العلم الباطن الذين يأتيهم كل الناس، فهذا أبو هريرة يقول: «حفظت من رسول الله ﷺ جرابين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم»^(١). فعلمهم هو هذا العلم.

محب: العلم الذي لم يُنقل عن أبي هريرة عمن أخذ؟ وكيف علمتموه وهو لم يُسجَّح به؟ ثمَّ عليك أن تعلم أن هذا الذي حفظه أبو

(١) رواه البخاري (١٢٠).

هريرة إنما حفظه من رسول الله ﷺ كسائر الأحاديث التي حفظها عن رسول الله ﷺ، ولم يكن كشفًا ولا إلهامًا؛ إذ قد تلقاه عن رسول الله ﷺ، فكيف تدّعي أنه علم لدني لتحتج على زعمك أن الشيوخ عندهم علم باطن لدني؟!!

وإنما لم يحدث أبو هريرة بما لم يحدث به لأنه كان مشتتمًا على ذكر الفتن التي لا يصلح نشر أحاديثها في الناس حين تكون سببًا لتفريق الكلمة، ولذلك قال عبد الله بن عمرو بن العاص: «لو حدثكم أبو هريرة أنكم ستهدمون كعبتكم وتقتلون ابن نبيكم لقتلتموه»^(١).

عماد: في سورة الكهف قصة موسى مع الخضر، وفيها أن موسى عليه الصلاة والسلام اعترض على الخضر لعدم فهمه الوجه الصحيح لتلك الوقائع، والخضر × لأنه صاحب علم لدني كان يقف على حقيقة الأمور، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وهذا هو العلم الباطن أو العلم اللدني.

محب: العلم الذي أوتيته الخضر × كان عن طريق وحي

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٣١/ ٢٨٥)، والأزرقي في أخبار مكة

(١/ ١٩٦). وانظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٩٤).

النبوة، فالخضر × كان نبياً، بدليل قوله تعالى عنه: * فَأَزَادَ رَبُّكَ أَنْ
يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي &
فما فعله كان أمراً من الله تعالى له لكونه نبياً، ولا يجوز لأحد غير الأنبياء
كائنًا من كان أن يقتل صبياً بدعوى أن العلم اللدني يقتضي قتله قبل أن
يبلغ فيرهب أبويه طغياناً وكفراً، ولا أن يأخذ مال غيره أو يتلفه بدعوى
أن هذا المال بطريق العلم اللدني سيغصب من ظالم.

ولو كان الذي أوتي الخضر × علماً لدنياً من غير طريق الوحي
فهو إنما ثبت بإخبار الله تعالى، فكيف لنا بعد انقطاع الوحي أن نشبته
لأحد من الناس؟ وكيف سنعرف أن فلاناً من الناس أوتي علماً لدنياً
دون إخبار الله تعالى؟ ولو ادعى ذلك مدّعٍ وصدّقناه بدون برهانٍ من
الله لا ادعى ذلك خلقٌ كثير؛ بل لا دعاه الكهنة والمنجمون والسحرة!

تأخر الوقت.

هكذا غمغم عماد.

انفض المجلس، ودّع محب عماداً عند الباب، وعاد إلى مكتبه وكتب

الرسالة التالية..



رسالة: « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو »

أخي عماد! أبعث إليك كلماتٍ من خلجات القلب، بل هي من نبضات الفؤاد.

أبعثها إليك صادقةً ناصحةً محبةً مشفقةً، أريد بها الخير لك.

أخي الكريم! تأمل هذه الآية: قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥].

لنقف ولنتدبر هذه الآية ما معناها وعلام تدل.

إنها تدلُّ بكل وضوحٍ على أن الغيب لا يعلمه إلا الله، فهو يعلم ما كان وما سيكون، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩].

وتدبر معي هذه الآيات من سورة الكهف حينما اختلف الناس في مدة مكث أصحاب الكهف في الغار، فردَّ الله تعالى العلم فيها إليه سبحانه، قال الله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ ﴿ [الكهف: ٢٦]، وتأمل اللام في قوله: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أليست هي لام الملكية؟! ثمَّ إنَّ تقديم الجار والمجرور يُفيد الحصر والقصر، فَحَصَّرَ اللهُ تعالى علم غيب السموات والأرض وقصره على نفسه جلَّ وعلا وتقدَّست أسماؤه.

ولا شكَّ أنَّ هذه الآيات واضحة كلِّ الوضوح، بيَّنت كلَّ البيان في أنَّ الله وحده هو عالم الغيب والشهادة وهذه قضية واضحة راسخة عند عموم المسلمين.

واقراً معي هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] تأمل الآية وتدبرها، وانظر فيها علام تدل وما معناها!

إنَّ دلالتها واضحة في اختصاص الله ﷻ بعلم هذه الأمور الخمسة: فعلم الساعة يدل على علم الله المطلق بأمور الآخرة، وذكر الساعة -وهي القيامة- لأنها أولها وأقربها إلى الدنيا، وعلم نزول الغيث يدل على العلم بأمور العالم العلوي، وعلم ما في الأرحام فيه إشارة إلى ما يزيد وينقص من خلق الإنسان، أما علم ما في الغد ففيه إشارة إلى أنواع الزمان وما فيه من تقلبات وحوادث، وخصَّ منه ما في الغد لأنَّه

رسالة: « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو »

الأقرب إلى المخاطب، أما علم مكان الموت فهو إشارة إلى الجهل بالحوادث الأرضية.

فكل هذه الأمور حين تتأملها لا بد من أن توقن أن علمها مختص بالله، لا يشاركه فيها أحد.

ألا ترى وضوح الآيات؟! ألا تتدبر معانيها وتنظر فيها نظر معتبر متأمل؟! وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ ﴾ [النساء: ٨٢]؟ فربُّك يرعِّبك بقوله: (أفلا) في أن تتدبر كتابه، وتتأمل فيه؛ لأنه هو الهادي إلى سواء السبيل.

أخي عماد! تأمل معي هذه الآية:

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ

الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَتَّعِبُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

أتدري من المخاطب بقوله تعالى: (قل)؟ إنه نبينا محمد ﷺ خليل الله، الذي اصطفى من دون الناس ليكون للعالمين نذيراً. نعم! إنَّه رسول، ومع ذلك يقول: (وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ).

فليماذا لا يعلم الغيب وهو أحبُّ الخلق إلى الله؟ ذلك لأنَّ الغيب خاصُّ بالله وحده جل جلاله.

وتأمل معي هذه الآية: ﴿ قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا

شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨].

هل تدبرت هذه الآيات؟ هل عقلت معناها؟ إنه رسولنا عليه الصلاة والسلام يوضح ويبين لنا أنه لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا يعلم الغيب، ولو علمه لاستكثر من الخير! إن هذه الآية موجودة في كتاب الله تتلى ليل نهار، ولكنها تحتاج إلى تأمل وتدبر!

وأما علم الرسل من الغيب فهو بتعليم الله تعالى لهم، كما قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَجَتَّىٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال أيضاً: ﴿ عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

أخي عماد! هذا الكلام إنما هو عن رسل الله الذين بذلوا الغالي والنفيس في سبيل الله، ومع إطلاع الله تعالى للرسول على بعض علم الغيب يبين أنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً.

وتأمل معي هذه الآيات في شأن الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ
 اِنِّىْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ۗ قَالُوْۤا اَجْعَلْ فِىْهَا مَنْ يُّفْسِدُ فِىْهَا وَيَسْفِكُ
 الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ اِنِّىْۤ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ *
 وَعَلَّمَۤ اٰدَمَ الْاَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ اَنْبِئُوْنِىْ بِاَسْمَآءِ
 هٰٓؤُلَآءِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ * قَالُوْۤا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَاۤ اِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ اِنَّكَ
 اَنْتَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ * قَالَ يَتَّخِذُمْ اَنْبِيٰٓئُهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ ۗ فَلَمَّآ اُنۢبِأَهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ
 قَالَ اَلَمْ اَقُلْ لَكُمْ اِنِّىْۤ اَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاَعْلَمُ مَا تُبْدُوْنَ وَمَا
 كُنْتُمْ تَكْتُمُوْنَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٣]، هل قرأت هذه الآيات جيداً؟ وهل
 عرفت ما دلّت عليه وما معناها؟ وهل وعّاها قلبك؟ إنهم ملائكة الله
 الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ومع ذلك فالغيب محجوب عنهم.

اقرأ معي هذه الآيات من قصة يوسف × حين افتقده أبوه:

قال الله تعالى حكايةً عن يعقوب ×: ﴿قَالَ بَلَىٰ سَوَّلَتْ لَكُمْ
 اَنْفُسُكُمْ اَمْرًا فَصَبِّرْْ حَمِيْلٌ ۗ عَسَىٰ اللّٰهُ اَنْ يَّاتِيَنِيْ بِهِمْ جَمِيْعًا ۗ اِنَّهُ هُوَ الْعَلِيْمُ
 الْحَكِيْمُ ﴿٨٢﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يٰٓاَسْفٰى عَلٰى يُوْسُفَ وَابْتِضَّتْ عَيْنَاهُ
 مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيْمٌ ﴿٨٣﴾ قَالُوْۤا تَاللّٰهِ تَفْتُوْۤا تَذَكَّرُ يُوْسُفَ حَتّٰى
 تَكُوْنَ حَرَضًا اَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهٰلِكِيْنَ ﴿٨٤﴾ قَالَ اِنَّمَا اَشْكُوْۤا بَنِيَّ

وَحُزِنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٣﴾ يَنْبِيَّ أَذْهَبُوا
فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ
رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٨٤﴾ [يوسف: ٨٣-٨٧]، فلو كان يعقوب ×
يعلم الغيب لعلم بمكان يوسف في هذا الوقت الطويل الذي عاشه
حزيناً عليه.

فملائكة الله وأنبياءه لا يعلمون الغيب، فالغيب خاصٌ بالله عز وجل
وحده، قال الله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

وقال أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا
كَلِمَةٍ بَصِيرَةٍ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

هذه الآيات لا تبقي شكاً في قلب مسلم في أن الغيب لله وحده،
هو الذي يصرفه كيفما شاء، فلا ملك ولا رسول ولا إمام ولا ولي يعلم
من الغيب شيئاً، إلا ما كان من الرسل؛ فإن الله يُطَّلِعُهُمْ على ما شاء، أما
غيرهم من أولياء أو أئمة أو صالحين فإن الغيب محجوبٌ عنهم، وليس

رسالة: « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو »

في هذا نقص في حقهم، وقد قال الله على لسان رسوله: * وَلَا أَعْلَمُ
الْغَيْبَ &، وإنما فيه إيمانٌ بهذه الأدلة المتكاثرة على أن الغيب لله.

وأخيرًا: تأمل -يا عماد- هذه الآية الكريمة:

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ زَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا
رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ
مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ
مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٥٩، ٦٠].

أسأل الله العلي القدير لي ولك الرشد والهداية، وأن يسلك بنا
سبيل مرضاته، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه.

محِب



الكرامات والمعجزات

مرّت أيام لم يلتقِ فيها عماد بمحب، كان فيها مستغرقاً في قراءة كتب العلماء المحققين، وفي يومٍ من الأيام ومن غير سابق وعِدٍ اتّصل عماد بمحب سائلاً عن أخباره متمنياً له الراحة والاطمئنان، ثم قال له: أودُّ ملاقاتك لمناقشة بعض الأمور.

رَحَّب به محب، وتواعدا على أن يلتقيا على شاطئ البحر.

كان الجوُّ جميلاً.. الرياح تتحرك بشكلٍ هاديٍّ، التقيا في استراحةٍ هادئةٍ، وبعد السؤال عن الأحوال والصّحة قال عماد: لقد استفدت كثيراً من الكتب التي قرأتها، وازددت يقيناً بما اخترته لنفسِي.

ولكن عندي بعض التساؤلات:

محب: تفضّل سلّ عما بدَا لك.

عماد: ما تقول يا محب في المعجزات؟

الكرامات والمعجزات

محب: آيات الرسل حق، والآيات التي أُيد بها نبينا محمد ﷺ كثيرة، ومنها القرآن.

عماد: مَنْ الذي يقوم بتبليغ الدين بعد وفاة النبي ﷺ؟

محب: العلماء.

عماد: لكن لا يستطيع كل الناس أن يكونوا علماء!

محب: الكل عالمٌ فيما يعلم، ومُتعلِّمٌ فيما يجهل، فإذا علم مسألةً من دين الله فهو عالمٌ فيها، وعليه أن يبلغها؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»^(١).

عماد: الشيوخ ألا يستطيعون أن يكونوا ورثة النبي عليه الصلاة والسلام في تبليغ الدين؟

محب: ولم لا يكونون ورثة الأنبياء إن كانوا على علمٍ راسخٍ وعملٍ صالحٍ؟! وإذا لم يعتقدوا ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهم أهلٌ لأن يكونوا كذلك، فالعلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورثوا العلم.

(١) رواه البخاري (٢٣٧٤).

عماد: إذا أَلَا يُكْرِمُ اللهُ ذلك الوارث بشيءٍ مِنَ الكرامات ويؤيده في دعوته إلى الله؟

محب: لا يشترط أن يخرق الله له العادة دلالة على صحّة طريقه إلى الله.

عماد - متعجبًا: أو أنت تُنكر الكرامات!؟

محب: أنا لا أنكر الكرامة، ولكنني أنكر الفهم غير الصحيح للكرامة.

عماد: وهل هناك فهمٌ صوابٌ وفهمٌ خطأ للكرامة، أم أنّ هذه حجةٌ لإنكار الكرامة؟

محب: ليس لك أن تُنكر عليّ ما لم أقله، ولو أنّك تأملت يسيرًا كتب التراجم المعنية بتراجم الصوفيّة المتأخرين لتبين لك بجلاء مدى الانحراف في فهم الصوفيّة للكرامة.

عماد: الانحراف! ألم أقل لك: إنك تريد من هذا إنكار الكرامة!؟

محب: لا تعجل عليّ، ولكي أدلل لك على مبلغ الانحراف في فهم الكرامة عند الصوفيّة أرجو أن تتأمل معي هذه النصوص من كتب تراجم الصوفيّة:

الكرامات والمعجزات

* فقد ذكروا أنّ وليّاً من الأولياء كان يختم القرآن (٣٦٠) ألف مرة في اليوم والليّلة.

* وآخر ختم القرآن في الطواف (١٢) ألف ختمة.

* ومن الكرامات التي تتعلق بحياتهم الخاصّة أنّ وليّاً مكث أربعين سنة لم يأكل ولم يشرب.

* وأنّ الولي صاحب التصرف يمد يده إلى جيب من شاء فيأخذ منه ما شاء من الدراهم وذو الجيب لا يشعر.

* ومن كراماتهم العجيبة: أنّ أحدهم شكّا إليه أهل بلده كثرة الفئران، فأصدر مرسوماً برحيل الفئران فرحلت، ولم يعد بعد ذلك اليوم هناك فأزّ واحد.

* وأنّ أحد أوليائهم أمر الشمس بالوقوف فوقفت حتى قطع المرحلة الباقية من سفره، ثمّ أمرها بالغرور فغربت وأظلم الليل في الحال.

* وآخر يجعل الملائكة تسجد للأولياء.

محب: ما رأيك في هذه القصص؟

عماد: ...!؟

محب: إنَّ هذا ليس انحرافاً في فهم الكرامة فحسب؛ بل زندقَةٌ وغلُوٌّ مفرطٌ.

عماد: لكنَّك بقولك هذا تُخرجها عن كونها كرامةً خارقةً للعادة.

محب: ليس من شأن الكرامة أن تكون في معصية الله.

عماد: ولكن!!

محب: ماذا؟

عماد: إني أفكر في مسلك سلفنا الصالح تجاه الكرامة.

محب: إنَّ سلفنا الصالح رحمهم الله فهموا الكرامةَ وفقَّ ضوابطَ وحدودَ، فأخبرونا أنَّ أعظم كرامة هي الاستقامة على شريعة الله وسنة محمد بن عبد الله ﷺ.

عماد: أريد منك -يا محب- أن تبسط لي الكلام حول معنى الكرامة؛ لأنَّه حصل عندي لبسٌ في فهمها.

محب: الله تعالى كَرَّمَ بني آدمَ وسخَّرَ لهم كل ما خلقه، فجعله تحت تصرفهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

[الإسراء: ٧٠].

الكرامات والمعجزات

إذا نظرنا إلى هذه النعم علمنا إلى أيِّ حدِّ كَرَّمَ اللهُ بني آدم، ولا شكَّ أنَّ أعظمَ نعمةٍ أنعمها اللهُ على الإنسان هي إنقاذه إياه من الشرك إلى الإيمان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقد بيَّن اللهُ تعالى من هُم أكرم النَّاسِ عنده، فقال: ﴿يَتَأَيُّبُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

قطع محب حديثه وهو يتأمل وجه صديقه، فقد بدأ مُستغرِقاً في تفكيرٍ عميق، بادره بقوله: لعلك قد تعبت.
تنبَّه عماد لكلمات محب متفاجئاً، وبدأ يقول: أبداً أبداً! أنا لستُ متعباً، ولكنني كنت أفكّر في أمورٍ كثيرةٍ مرّرت بخاطري كنتُ أمارسها وأرى من حولي يمارسونها.

بدأ على وجه محب تشجيع عماد على قول المزيد.
لم يزد عماد على أن قال: جزاك اللهُ خيراً؛ فقد كانت هذه المسألة تحيّرني، ولكن ثمة موضوعٍ آخرٍ أودُّ الاستفسار عنه.
محب: تفضّل.



دعوى الرابطة بين المريـد والشيخ

عماد: أوذُ الاستفسار عن حُكم الرابطة.

قال محب مقاطعاً: الرابطة!

استطرد عماد قائلاً: المقصود من الرابطة استمداد المريـد من روحانيّة شيخه الكامل الفاني في الله بكثرة رعاية صورته ليتأدب ويستفيض منه في الغيبة كالحضور، ويتمّ له باستحضاره الحضور والنور، وينزجر بسبب ذلك من صغائر الأمور.

محب: إذا كان فهمي صحيحاً لمذهبكم فأنتم تقصدون أنّ المريـد يرى شيخه في الدرجات العالية، ويراه صاحب عدّة تصرفات أُذن له فيها، ويعدُّ نفسه -أي: المريـد- في مرتبة دنيئة، ثمّ يتخيّل شيخه بين عيني قلبه، فيستعين به، وهذا كله يصنعه في غيبة شيخه، أليس كذلك؟

عماد: بلى، صحيح. انظر!

وبدأ عماد يقرأ من ورقة أمامه، يقول الشيخ محمد خالد في الرسالة الخالدية: «أعلى درجة في الرابطة هي أن ينظر المريـد بما بين عينيه من

دعوى الرابطة بين المريـد والشيخ

خزينة خياله إلى وجهه؛ بل إلى ما بين عيني روحانية المرشد؛ لأنَّ مصدر الفيض هناك، ثُمَّ يَدُلُّ نفسه ويضع من شأنها أمام المرشد غاية الضيعة، متضرِّعاً ومتَّخِذاً إيَّاه وسيلةً بينه وبين الله، ثُمَّ يَدْخُلُ في خزينة خيال روحانية المرشد، ويفكِّر رويداً رويداً فيما ينزل على قلبه، ويحرص على أن لا يغيب خيال شيخه عن عينيه، شاغلاً خياله بما يتعقبه مما يفيض وينزل عليه إلى أن يرجع إليه وَعَيْه».

محب: أعوذ بالله من هذا الهراء! إنَّ هذه الصورة من الاستحضار لا تكون إلا لله تعالى، فهو القائل جل جلاله: * **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُرَّ مَا نُؤَسِّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴿١٥﴾ & ، وقال تعالى: * **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** & ، وقال تعالى: * **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** ﴿٦١﴾ & .

إنَّ القرآن الكريم قد جَلَّى هذه الحقيقة في غير ما آية؛ لتستحضر القلوب جلال ربها وعظمتها ولتراقبه في كل حين، وذلك حقُّ الله وحده لا يُصْرَفُ لغيره كائناً من كان؛ إذ لما كان العبد مربوباً لله جل جلاله وجب عليه أن لا يفعل إلا ما يحبه منه، فدوام المراقبة لله جل جلاله

واستحضار عظمته في القلوب يُؤكد هذا المعنى، فكيف يتَّجه العبد بعد هذا بخياله ووجدانه وخواطره وشواغله إلى مخلوقٍ مثله لا يملك له ضرراً ولا نفعاً ليتَّخذ من ذلك حاجزاً له عن المعصية في الغيبة؟! إنَّ شُغل القلب بهذا وفراغه من استحضار عظمة الله ومراقبته دليلٌ على عبودية هذا العبد لذلك الشيخ، وإنزاله في قلبه منزلاً أعلى من مكانة ربِّه عنده، وذلك انتقاصٌ لله جلَّ جلاله وعزَّ شأنه، وصرفُ حقِّ خالصٍ له لغيره، فإذا كان العبد لا ينزجر في الغيبة إلا باستحضار روحانية مُرشده واستشعارِ الدُّلِّ والضعفِ أمامه؛ فإنَّ ذلك لا يُنبئ إلا أنَّ هذا العبد قد فقد مخافةَ الله في قلبه، ولم تجد عظمة الله لها إلى قلبه مدخلاً، فاستعاضَ عن ذلك باستحضارِ صورِ البشرِ وروحانيَّتهم، وذلك في أقلِّ درجاته هو الشرك بالله جلَّ جلاله، وضياع حقيقة التوحيد للعليم الخبير سبحانه: * **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** &.

عماد: ...!

محب: أخبرني -يا عماد- لماذا نراكم توزعون صور مشايخ الصوفيَّة بأحجامٍ مختلفة، فبعضها بطول الجدار، وبعضها بطول النافذة، ومنها الصغير والكبير، أخبرني لماذا؟!

أليس لهذه الصور تأثيراتٍ مختلفةٍ على قلب المريـد والمريـدة على حدِّ

سواء، ويجعل تعلق هؤلاء بمشايخهم أعظم من تعلقهم بالله جلّ وعلا؟!!

إنّ الواقع يثبت أنّ هذه الصور لم تتعلق بها القلوب فحسب؛ بل إنّها تُدعى ويُستغاث بها من دون الله، ولربما يصل الحال إلى أن تُجسّم في البيوت لتصبح تماثيل كتماثيل المشركين.

وإذا كان المريـد سيقف أمام تماثيل شيخه مُمارسًا الرابطة، ومستعينًا بروحانيّته، ومذلاً نفسه ومتواضعًا له كل التواضع، ومتضرّعًا إليه، فما هو الذي صنعه الذين عبدوا الأصنام غير هذا؟! رُفع التمثال ووضع مكانه خيال الشيخ، فأبى فرّق سيظهر لك؟!!

والذين عبدوا الأشجار والأحجار لم يكونوا ينتظرون منها قضاء الحاجات، وإنما يسألون قضاءها مما تمثله من الروحانيّة التي تمثلها.

ولعلّ هذه الآية تبين لك حكم هذه الرابطة كما عرفتها بنفسك:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

بدأ عماد مطمئنًا هذه المرة.. لقد ظهر على وجهه إشراق التصديق

لكلام محب؛ بل والافتناع به.

الدُّرّ

محب: أودُّ أن أسألك سؤالاً قصيراً.

عماد: ما هو؟

محب: لماذا تتميز حلقات الذكر الصوفي بأمورٍ أقلّ ما يقال فيها:

إنّها خارجة عن الذوق والوقار؟

عماد: خارجة عن الذوق والوقار!

محب: نعم! خارجة عن الذوق والوقار؛ فضلاً عن كونها لم يأتِ

بها الشرع، فلم يفعلها محمد ﷺ، ولا أصحابه من بعده.

عماد: لا تُلقِ الكلام جزافاً، وتأمل ما تقوله من غير تهويل!

محب: سأذكر ما أريد من غير تهويل ولا تهوين.

إنّ المتأمل لحلقات الذكر الصوفي يلحظ -وبكل أسى- ما يلي:

١- القفز أثناء الذكر، فترى الصغير والكبير يقفز القفزات

العجيبة، وهو يردد ألفاظاً، مثل: (هو هو) و(أحّ، أحّ)، وأظنك تتفق

معني على أن النبي ﷺ لم يكن يقفز تلك القفزات، ولا يردد تلك العبارات.

٢- ترديد ألفاظ مُنكرة شرعاً وعقلاً، كلفظ السُّكر، وألفاظ تشتمل على الحلول والاتحاد مع تنعيمٍ ودفوف.

٣- إقامة هذه القفزات والرقصات المسماة زوراً (حلقات ذكر) مع الدفوف والإنشاد في بيوت الله.

٤- اختلاط الرجال بالنساء - كما في بعض الأماكن - في بعض الرقصات، ولا شك أن هذا من أعظم المنكرات.

وإن هدي محمد ﷺ هو الفيصل، فأين نجد في هديه ﷺ تلك الرقصات والقفزات؟! وهاتيك الأذكار المبتدعات؟! نبتونا بعلمٍ إن كنتم صادقين!!

عماد: إذا كان ما ذكرته باطلاً فما هو المشروع من الأذكار؟ وما هي طُرقه المشروعة؟

محب: نعم. إن الأذكار والصلوات حتى تكون شرعية وتنتج التقوى والصلة بالمولى والثواب في الآخرة لا بد لها من أمور تُضاف إلى حُسن النية وحضور القلب، وهي:

١- أن تكون الأذكار بما ورد في كلام الله أو كلام رسوله ﷺ؛ لأنَّ الأذكار عبادة، والعبادة أصلها التوقيف، فلا يُتعبَّد الله تعالى بشيءٍ حتى يدلَّ عليه الدليل الشرعي، فقد قال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وفي رواية: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).

٢- أن يُراعى فيها العدد في حالة ورود الذكر في كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وعدم اعتبار عددٍ معينٍ إذا لم يرد، فإنَّ النبي ﷺ لا يقيَّد ذكرًا بعددٍ إلا ليكون المقصود بالتعبُّد هو الذكر مع عدده ذلك، إلا أن يُفتح باب الزيادة أو يخصَّص على ذكرٍ معينٍ بإطلاق، فمتى ما قيَّد بعددٍ ووجب التقيُّد به؛ لأنَّ حكمة ذلك مردُّها إلى الله تعالى، والنبي ﷺ معصومٌ عن أن يقول عبثًا.

٣- أن تكون الأذكار باللفظ الشرعي الوارد لا بالمعنى؛ فإنَّ اللفظ في الذكر متعبَّد به، ودليل ذلك حديث البراء بن عازب حين أعاد على النبي ﷺ ذكر النوم ليحفظه، فلما بلغ: «وَنَبِيُّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» قال:

(١) رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

«ورسولك الذي أرسلت» فقال له النبي ﷺ: «قل: ونبيك الذي أرسلت»^(١).

٤- أن لا يخترع لها الإنسان أجرًا محددًا من تلقاء نفسه، مع التيقن بأن الذكر الوارد لا يخلو عن الثواب الجزيل وإن لم يحدد، فالأجور غيب لا يعلمها إلا الله تعالى، فمتى ما أخبرنا الله تعالى بواسطة نبيه عن أجر ذكر أخبرنا به وقلناه، ومتى لم يكن هناك إخبار فلا يجوز التقول على الله تعالى بغير علم.

٥- أن لا يضاف إليها شيء من الكيفيات والهيئات، ولا يُنسب إليها شيء من الاعتقادات التي لم تُنقل عن النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأنه المكلف بالبيان وقد بين.

أطرق عماد برأسه متأملًا تلك الحوارات وما غيرته في تفكيره ونظرتة للدين، فبادره محب بقوله: ألم أقل لك: إنك تحتاج إلى إنقاذ؟!

فالتفت عماد إليه وقال: جزاك الله -يا محب- خيرًا؛ فقد بينت لي معالم كانت خفية عني منذ زمن، وبدعًا طالما مارستها واعتقدتها وهي ليست من الدين في شيء.. فالآن بان لي الطريق، ووفقت للهداية بفضل

(١) رواه البخاري (٢٤٤).

الله، ثُمَّ بِمَحَاوَرَتِكَ لِي يَا مَحَبِّ! وَسَوْفَ أَلْزِمُ طَرِيقَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ وَصَحَابَتَهُ وَأَتَّبَعُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَنْبُذُ التَّقْلِيدَ وَالتَّعَصُّبَ وَالهَوَى
الَّذِي خَيَّمَهُ عَلَى عَقْلِي فَتْرَةً طَوِيلَةً.
وَاللَّهُ يَحْفَظُكَ وَيُرْعَاكَ.. وَإِلَى لِقَاءِ آخِرٍ.

والله ولي التوفيق



الفهرست

٣	المقدمة
٥	الموج المتلاطم
٨	وإذا سألك عبادي عني فإني قريب
٣٣	إذا سألت فاسأل الله
٤٦	ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها
٦٣	وعنده مفاتيح الغيب
٧٨	رسالة: (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو)
٨٥	الكرامات والمعجزات
٩١	دعوى الرابطة بين المرید والشيخ
٩٥	الذكر
١٠٠	الفهرست

